اقرأ مع العالم :

# عشرة كتب في كتاب

الدكتور/ حمادة ابراهيم

دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني - القاهرة
ص ب ١٣٠ ت ٧٦٠٥٢٣-٧٥٠١٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

# تقديم

ثلاثة آلاف صفحة تقريبا ، فى عشرة موضوعات منوعة ، بقلم عشرة كتاب من بيئات مختلفة ، ونستطيع أن نضيف مؤكدين : تخلو منها المكتبة العربية حاليا والى سنوات عديدة قادمة حتى ما يهمنا منها بصفة حيوية مباشرة مثل كتاب « دمار اسرائيل من الداخل » ، وكتاب « فى مواجهة الموت أو أطول يوم فى تاريخ اسرائيل » والأول يقدم لنا الكثير عن الظروف الاجتماعية الشاذة داخل المؤسسة العسكرية الصهيونية حيث يتنبأ الكاتب ، وهو اسرائيلى ، بانهيار هذا الكيان . والثانى يقدم لنا الكثير مما نجهل عن حرب أكتوبر ...

ذلك باختصار شديد ما يحتويه هذا الكتاب الموجز بحكم طبيعته ولكن فى غير اخلال كبير .

ونعتقد أن القارىء العربى فى مسيس الحاجة لمثل هذا الكتاب الصغير فى حجمه ، الجديد فى فكرته فهو يقدم له فوائد عدة ومميزات جمة لعل أبرزها:

- أنه يوفر على الانسان العصرى الموزع بين اهتمامات الحياة اليومية الطاحنة، ولكنه حريص على مواكبة ايقاع العصر السريع ، يوفر عليه شهورا من الانقطاع للقراءة الجادة المرهقة فى الكتب الأصلية ، بصرف النظر عن امكان حصوله على هذا العدد من الكتب ، هذا مع افتراض تمكنه من اللغات التى صدرت بها .

- كذلك فان هذا الكتاب يوفر على القارىء مشقة الاختيار الصعب من بين ملايين الكتب التى تخرجها المطابع وتكتظ بها المكتبات فى العالم .

— كما أن الكتاب مزود بكافة المعلومات اللازمة للرجوع الى الكتب الأصلية حيث يبدأ كل كتاب معروض من الكتب العشرة المختارة بصورة لغلافه تحتوى على العنوان واسم المؤلف والناشر .

— هـذا بالاضافة الى أن ما يضمه هـذا الكتاب ليس مجرد ترجمة أمينة لبعض فقرات من كل كتاب ، وانما يقدم لنا تحليلا نقـديا لكل كتاب من هـذه الكتب ، وفى بعض الحالات يتضمن العرض اضافة هامة تعكس الثقافة العربية الاسـلامية التى ينتمى اليها صاحب الكتاب فى طبعتـه العربية ودار النشر التى قامت مشكورة بطبعه ونشره .

— واذا كان يجمع بين هـذه الكتب العشرة جميعا صفة الحداثة ( فمعظمهـا صدر بعد عام ١٩٨٠ ) ، واذا كان يجمع بينها أيضا صفة الأهمية التى جعلتها موضوع حديث الصحافة العالمية المتخصصة كما جعلتها من مطبوعات كبرى دور النشر فى العالم ، فان ما يفصل بينها هـو تنوع المواد التى تعرضها والقضايا التى تعالجها يتجلى ذلك فى شمولها على موضوعات علمية بحتـة ( كتاب « أعاجيب الحـواس » ) و موضوعات اجتماعية ( كتاب «المعارضات الكبرى فى التاريخ» و كتاب «التمزق الاسرائيلى من الداخل») وموضوعات سياسـية ( كتاب « فى مواجهـة الموت » ) وتراجم وسـير ( كتاب « كانط فى حياته الخاصة » ) ، وفى النقد الفنى الحديث ( كتاب « المؤلفات المفتوحة ») ، وفى علم النفس ( كتاب « الكوابيس » ) .

ولم تخل مجموعة الكتب المختارة من التحقيقات الصحفية الساخنة التى تتناول أهم القضايا التى تشغل الرأى العام العالمى ( كتاب « فى قفص الدب » ) الذى يكشف النقاب عن منطق النظام العميل فى « كابول » بأفغانستان ، وكتاب « عالم على حـدة » الذى قضى مؤلفه سنتين فى معسكرات التعذيب الروسية ويقـدم لنـا من خلاله الشهادة الدامغة على ذلك الفزع الأكبر أو على حـد تعبيره ( الرعب المطلق ) .

د. حمـادة ابراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟
بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ
أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

( ١٧ــ٢٠ : البلد )

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى
ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ
ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ
كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾

( ١٩ــ٢٧ : الحاقة )

MARTIN GARDNER
L'UNIVERS AMBIDEXTRE
LES MIROIRES DE L'ESPACE - TEMPS
SEUIL — 1985

# الأيمنـــون الأعسرون
# أو
# مرايـــا الفضـــاء والزمن

لمـــاذا تفضل الانسانية جمعاء اليد اليمنى وتحبذ استعمالها على اليـــد اليسرى ؟ وهل تعرف لمـــاذا الشخص الأعسر ، مع تميزه فى بعض الألعـــاب الرياضية ، يعانى من تفاصيل أخرى كثيرة فى الحياة اليومية ؟

والمرايا التى نشاهد فيها أنفسنا كل يوم ، لمـــاذا تعكس الصورة جاعلة اليمين يسارا واليسار يمينا وليس الأعلى أسفل والأسفل أعلى مثلا ؟

هذه هى الأسئلة التى يبدأ الكاتب طرحها ، ومن هذه الأسئلة العادية تتفجر سلاسل من الأسئلة الأخرى حول أسرار الوجود ، وأصـــل الحياة البشرية ، والبعد الرابع ، وعلم الزمن ، والعوالم المقلوبة ، رحلة عجيبة نقابل فيها عددا من الكتاب ونتعرف على جوانب من حياتهم من أمثال ( وليام بلاك ) و ( لويس كارول ) و ( جيمس غويس ) و ( ايتالو كالفينو ) .

* * *

حتى الألفاظ التى تعنى اليمين والشمال فى معظم اللغات تشهد على ميل البشرية الى اليمين ، واجمـــاع البشر على الشـــعور بالارتيـــاح لكونهم من اليمينيين ، فلفظ « يمين » فى اللغة الفرنسية يوحى بأن الصواب هو فى استخدام اليـــد اليمنى ، ولا أدل على ذلك من لفظ « شـــمال » فى اللغـــة الانجليزية LEFT فهو يرجـــع فى الأصل الى كون اليـــد اليسرى قليلة الاستعمال لدرجة أنهـــا أصـــبحت LEFT أى مهملة أو مهجورة . كذلك فان لفظ SINISTRE فى الفرنسية الذى يدل على الشر أو الشؤم مشتق من الكلمة اللاتينية التى تعنى شمال ، وعلى العكس من ذلك ، فان لفظ DEXTERITE

وهو مرادف لمعنى المهارة أو الحذق مشتق من الكلمة اللاتينية التى تعنى اليمين • ومن ناحية أخرى فان كلمة « شمال » تعنى أيضا الشىء المعوج فى حين أن كلمة « يمين » تصف الشىء المستقيم والشخص العادل الشريف •

وفى اللغة الألمانية يعبرون عن الشمال بلفظ LINKS والصفة LINKISCH المشتقة من هذا اللفظ تطلق على الشخص الذى يشعر بالضيق أو الحرج ، فى حين أن RECHT فى الألمانية يوصف بها كل عادل ومستقيم ، تماما كالصفة المأخوذة من كلمة اليمين فى الانجليزية والفرنسية •

بالاضافة الى ذلك نجد أن اللغة الايطالية تضيف بعدا جديدا الى هذه الصفات المأخوذة من اليمين واليسار ، فاليد اليسرى تعنى STANCA أو MANCA والأولى تفيد معنى التعب ، والثانية تفيد معنى العيب أو النقص أما الأسبان فيطلقون على الشمال لفظ ZURDO وفى الأسبانية التعبير A ZURDO يطلق على الأداء المقلوب أو المعكوس •

وهناك رأى يقول بأن الشخص الأعسر له يدان ، أما العادى فله يد واحدة أو هو ( أكتع ) نظرا لأنه يستعمل يدا واحدة •

وجاءت المسيحية فرسخت فى العالم الغربى بالذات العلاقة بين الشمال والشر ، فمن العسير أن نعثر فى التوراة على اشارة ايجابية الى اليد اليسرى ، فالشيطان أعسر ، والقديسون حينما كانوا أطفالا رضعا كانوا يرفضون أن يرضعوا من أثداء أمهاتهم اليسرى ، والرسامون الذين صوروا مشهد يوم الحساب جعلوا الاله يشير الى الجنة بيده اليمنى ويشير بيده اليسرى الى الجحيم •

هذا الاعتقاد نجد له نظيرا فى الشرق ، وبالذات فى اليابان • ففى المناطق الريفية ، كان المعلم فى المدرسة يعاقب التلميذ الأعسر فيضربه ويحقره ، كذلك فان الفتاة العسراء تحاول أن تخفى هذا العيب حتى تجد لها زوجا ، وقد دعا

ذلك أحد الأطباء النفسيين الى نشر كتاب فى عام ١٩٦٨م بعنوان ( حذار من الثقافة اليمينية ) يحارب فيه هذه الظاهرة التى يرى أنها « تسبب الكثير من المتاعب والمضايقات التى لا فائدة منها » •

ثم يعبر الكاتب عن دهشته أمام ظاهرة تفضيل الانسان ليده اليمنى • وهو يرى أن القرود ، وهى أقرب المخلوقات للانسان تستعمل كلتا يديها • كما أن بعض الفقاريات تميل الى استعمال اليمنى أو اليسرى كما هى الحال عند بعض أنواع كلاب الصيد والببغاوات التى تقف على قدم ، غير أن هذه المخلوقات بعيدة كل البعد عن الجنس البشرى •

ويحاول الكاتب أن يفسر نشأة هذه العادة عند الانسان ، فيرجعها الى أسباب دفاعية أو هجومية ، حينما كان الانسان البدائى يفضل أن يقبض بيده اليمنى على خنجره أو حربته حتى تكون المسافة التى يقطعها السلاح لاختراق قلب خصمه أقصر ما يمكن ( حيث ان يده اليمنى تكون على خط مستقيم مع قلب خصمه ) ، وعلى العكس ، فان خاصرته اليسرى المعرضة للاصابة لوجود القلب ، تحتاج الى حماية الدرع ، ولا شك أن هذا الدرع يعوق الذراع اليسرى تاركا لليمنى كل حرية فى الحركة وحمل السلاح • ومع أخـذ كل هـذه العوامل فى الاعتبار ، اكتسبت اليد اليمنى اللياقة التى تتمتع بها •

ومن ناحيـة أخرى ، وطبقا لنظرية ( لى سيلك LEE SALK ) فان الطفـل الرضيع يشعر بالحاجة الى سماع نبضات قلب أمه ، لذلك فان الأم البدائية كانت تحمل طفلها على ذراعها اليسرى تاركة الحرية لذراعها اليمنى لتأدية الأعمال الأخرى •

وبعد عرض هذه الفروض وهذه النظرية لا يستطيع الكاتب الا أن يسلم مع علماء الأجناس البشرية ، أو على الأقل معظمهم ، بأن هذه الظاهرة وراءها سر لم يرفع عنه الحجاب تماما •

* * *

والآن ما نسبة العسر بين سكان العالم ؟ لا تهمنا الدقة فى تحديد هـذه النسبة ، المهم أن الغالبية العظمى من الناس يمينيون أو عاديون ، كذلك فمن بين الآخرين من تبدو فيهم ظاهرة استعمال الشمال بوضوح ، ومنهم من لا تكاد الظاهرة تلاحظ عليهم ، ومنهم فريق ثالث يستعمل كلتا اليدين بنفس الكفاءة والمهـارة .

* * *

والحقيقـة التى نعرفها جميعا هى أن الشـق الأيمن والأيسر من المخ متشابهان لأول وهلة ، غير أن الفحص الدقيق يكشف عن اختلافات خارجيـة لعلها ترجع الى أسباب وراثية ، فماذا عن هذا المخ ؟ هـذا الموجه الدقيق الذى يوزع الرسائل ويوجه الاعلام بطرق لم يتوصل أحد الى كنهها بعد ؟ كل ما نعرفه الآن أن فلقتى المخ تعملان بطريقتين مختلفتين تماما وبشكل يثير الدهشة .

ان شطرى المخ الأيمن والأيسر متصلان بشبكة من الأعصاب ، وحينما نقطع هـذه الشبكة فان الأشخاص المصابين بالصرع يشعرون بتحسن ملموس فى حالتهم .

ومن الحقائق التى وصل اليها العلم ، أن الشطر الأيسر من المخ يختص بالذات بكل ما يتعلق باللغات من حديث وكتابة واستماع وقراءة ، أى المهارات اللغوية .

وهو كذلك الشطر الذى يفكر بشكل منطقى تحليلى أو رياضى ، أما الشطر الأيمن فهو أكثر تخصصا فى معرفة الأشكال كالألحان والأعمال الفنية والابداعية وتركيب الوجه الانسانى ، ويبدو أنه يعمل بصورة غير منطقية ، وهو الشطر من المخ الذى يمارس الاندفاعات الغريزية وكذلك الانفعالات العاطفية .

* * *

ولا يخفى ما يعانيه الأعسر فى التعامل مــع الآخرين فى عالم الغالبيــة العظمى فيه يمينيون ، ولا يمكن للانسان أن يدرك هذه المتاعب التى يتعرض لها الأعسر الا اذا كان هو نفسه أعسر ، وتحاول المجتمعات الحديثة أن توفر للأعسر وسائل الراحة الممكنة ، من ذلك الأجهزة الرياضية التى صممت لهم فى بعض الألعاب الرياضية ، وفى عام ١٩٦٨م تم فى لندن افتتاح محل تجارى كبير يعلوه لافتة تحمل شــعار أو عنوان Any thing left-Hand, Ltd. ( كل شيء من أجل الأعسر ) •

ويقدم هذا المحل كل ما يناسب هذا الصنف من الناس •

كذلك فان بعض البنوك تصدر دفاتر شيكات خاصة باستعمال الأعسر ، ومن ناحية أخرى فان بعض الأجهزة الطبية أيضا تم تصميمها بحيث تناسب المريض الأعسر ، من ذلك طاقم أجهزة الأسنان الذى يسمح للطبيب أثناء العلاج بالوقوف الى يسار المريض •

ولكن على الرغم من ذلك ، فان الأعسر ما يزال مظلوما فى كثير من الأحوال، فهو اذا كان أوربيا يكتب من اليسار الى اليمين ، وفى المدن المزدحمة حيث الموائد متقاربة جدا فى المطاعم • فان ذراعه اليسرى تكون دائما فى صراع مع الذراع اليمنى لجــاره اليمينى ، كذلك فان الكثير من الأدوات والآلات خصصــت لاستعمالات اليمينيين دون اليساريين ، من ذلك المقص وبراية الأقلام الآلية ، وفتاحة الزجاجات الحائطية ، وشوكة الســلاطة ، ومضرب البيض ، والآلات الحاسبة وعشرات أخرى من الأدوات الشخصية العــادية التى لم يراع فيهــا ظروف الأعسر •

ان الأعسر يتعرض دائما لمضايقات تتعلق بتفاصــيل صغيرة لا تراعى ظروفه ، فهو حينما يركب الحــافلة أو المترو أو غيرهما من وسائل المواصلات العــامة فانه يجــد الفتحة المخصصة لاســتقبال النقود على اليمين ، كذلك اذا دخــل مقصورة الهاتف سيلاحظ أن الباب مصمم بحيث يفتح من اليمين ، وفى داخل المقصورة سيلاحظ أن سماعة الهــاتف تمسك باليــد اليسرى لتترك

الحرية لليد اليمنى لكى تضع النقود وتكون الرقم المطلوب وتكتب الملاحظات. وجميع ساعات اليد صممت خصيصا لاستعمالات اليمينيين ، ويكفى أن تحاول ملء ساعة فى يدك اليمنى لتدرك مدى الفارق ، ان أنماط السلوك وأساليب التعـامل تجمع على التكيف مـع اليمينيين من دون اليساريين ، فالمرأة التى تريد أن تغزل بالابرة ( تريكو ) عليها أن تترجم اليمين باليسار والعكس .

* * *

فى كتابها عن حيـاة « لويس كارول » تحاول الكاتبة « بيكر لينون » أن تصل الى بعض النتائج الهـامة ، فهى ممن يرون أن « لويس كارول » كان أعسر مـع أنه ليس هناك أدلة قاطعة على ذلك . ان الكاتبـة تؤكد أن « لويس كارول » كان أعسر فى مطلع حياته ، بدليل التأتأة التى كان يعانى منها .

المهم النتيجة التى خلصت اليها الكاتبة ، فهى ترى أنه اذا كان « لويس كارول » فى كتابته يعتمـد على أسـلوب يناقض أو يقلب المنطق العـادى ، فذلك لأنه « كان يحـاول أن يعكس الآخرين قليلا انتقاما منهم .. حوالى عشرين عاما » ، ومما يذكر فى هذا الصـدد أن صحفيا يساريا أراد أن يحتفل بهذه المناسبة فأصدر طبعة من صحيفته تقرأ من اليمين الى اليسار .

ومن العادات التى فرضها اليمينيون ولم تكن موجودة فى ماضى الزمان ما يتعلق بتصميم الملابس ، فمن ذلك أن فتحات ( عروات ) الأزرار فى سترة الرجل تكون الى اليسار دائما لأن من السـهل على اليمنى فى هـذه الحالة أن تزرر السترة وأن تثبت وردة فى ظهر الياقة الأيسر ، وللسبب نفسه أيضا تفضل المرأة أن تثبت المشبك فى الجهة اليسرى ، ومن ناحية أخرى فان النساء اعتدن أن يضعن الخواتم وما شابهها فى أصابع اليد اليسرى حتى لاتضايقهن عند المصافحة أو حينما يقمن بأعمال المنزل ، ومن ذلك أيضا أن جيب النقود الفضية فى سترة الرجل يكون فى أعلى اليسار حيث يسهل على اليد اليمنى الوصول اليه .

وهناك ظاهرة أخرى حديثة ، ولعلهـا نشأت فى الغرب جعلت فتحات الأزرار فى ثياب المرأة جهة اليمين بعكس الرجل • كذلك هناك بعض الملابس التى صممت بحيث يمكن أن يستعملها الرجل والمرأة على السواء ، حيث جعلت فتحات الأزرار فى الجانبين ، وبذلك يتمكن الرجل من أن يزرر الثوب ( وهو فى الغالب معطف ) فى اتجاه معاكس لاستعمال المرأة •

لعل من المناسب أن نشير الى جريمة كان لهذا الطرز من المعاطف دخل كبير فى الكشف عن مرتكبها ، فقد لاحظ المحقق أن القاتل ـ بعـد أن عبث بجيوب القتيل أعاد تزرير معطف الجثة على طريقة النساء مما أثبت للتحقيق براءة المتهم الرجل •

* * *

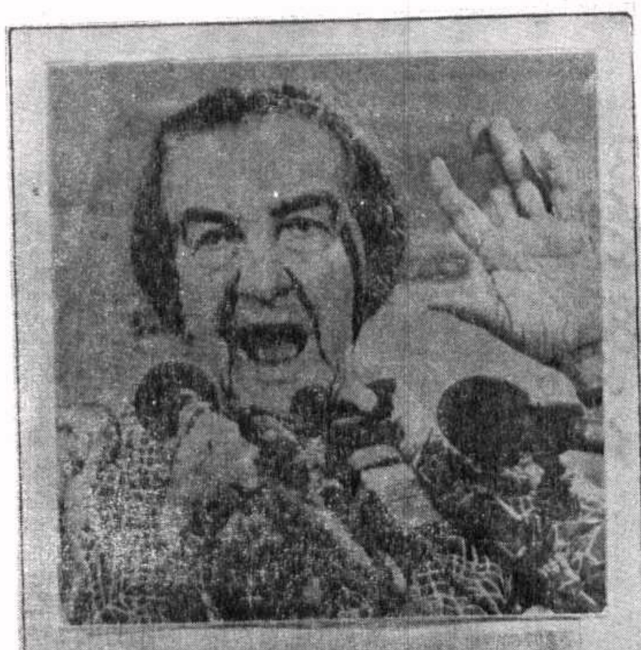
وفى ختام عرض هذا الكتاب الطريف نـلاحظ أن الكاتب رغم ثقـافته الواسعة وسعة اطلاعه الا أنه لم يشر من قريب أو بعيد الى الدين الاسلامى وموقفه من اليمين والشمال على الرغم من المـادة الخصبة التى نجدها بهـذا الخصوص مـع أنه سـاق بعض الأمثلة من التوراة ومن الانجيل ومن الشرق والغرب ، وان دل ذلك على شىء فانما يدل من ناحية على قصور الثقافة الغربية ووقوفها عند حدود معينة تتصور أنها هى غاية العلم التى ليس بعدها من مزيد •

وبالرغم من ضحالة علمنا وضآلة المراجع المتوافرة لدينا الا أننا حاولنا واجتهدنا فى حدود طاقتنا أن نسد هذه الثغرة ونضيف الى هذا البحث مـا يحقق له التكامل وعدم الانحياز أو المحاباة •

ومن ناحية أخرى فقد قمنا بترجمة هذا الجزء المتعلق بالاسلام ، وبعثنا به الى دار النشر التى تولت طبع الكتاب ونشره بعد الثنـاء على مجهودها ومجهود المؤلف •

ولاعتقادنا بالمام القارىء العربى المسلم بهذه المادة فاننا نعفيه من قراءتها كاملة ونحاول فقط أن نشير الى أن مادة اليمين والشمال تحتوى أمور المسلم كلها ، حيث استحباب تقديم اليمين فى كل ما هو من باب التكريم وتقديم اليسار فى ضد ذلك ، قال الله تعالى : ( **فاما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ...** ) الآيات ، وقال تعالى : « **فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة** » ، والآيات كثيرة فى القرآن الكريم التى تدل على هذا المعنى .

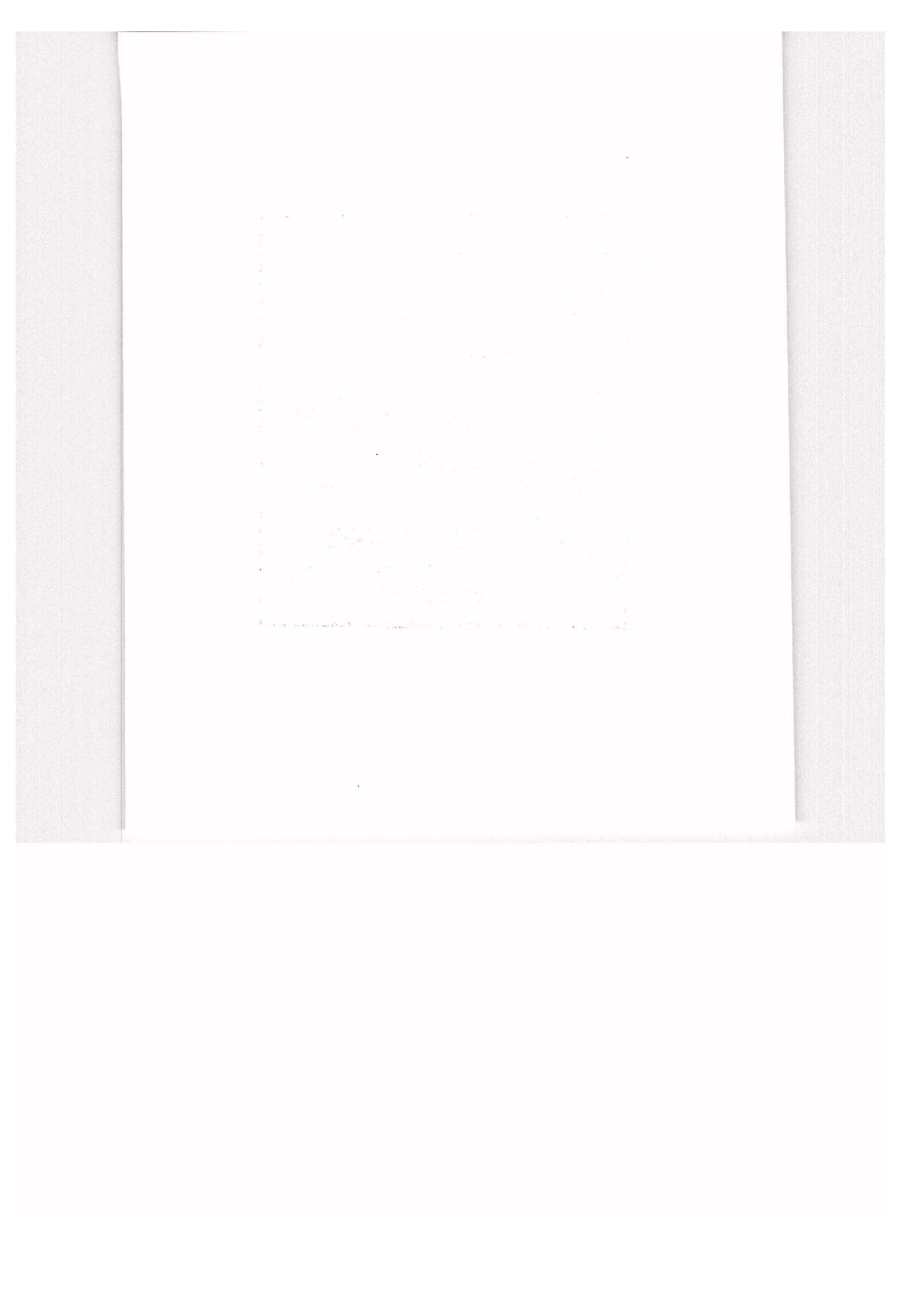
وفى الحديث الشريف، ما يؤكد ذلك ويفصله ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه التيمن فى شأنه كله ، وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه يقول دائما : « **الأيمن فالأيمن** » و « **الأيمنون ، الأيمنون ، الأيمنون** » ، وذكر فى حديث آخر : « **وكل بيمينك ، ولا تأكل بشمالك** » « **ولا تأكلوا بالشمال فان الشيطان يأكل بالشمال** » ، ومن ذلك أن الأخذ والاعطاء للمسلم بالشمال فيه هضم واحتقار له ، وذكر الامام النووى مما يستحب فيه تقديم اليمين الوضوء والغسل والتيمم ولبس الثوب والنعل والخف والسراويل ودخول المسجد والسواك والاكتحال وتقليم الأظافر وقص الشارب ونتف الابط وحلق الرأس والسلام فى الصلاة والأكل والشرب والمصافحة واستلام الحجر الأسود والخروج من الخلاء والأخذ والاعطاء وغير ذلك مما هو فى معناه أى من باب التكريم ، وذكر ما يستحب فيه تقديم اليسار مما هو فى ضد ذلك الامتخاط والبصاق ودخول الخلاء والخروج من المسجد وخلع الخف والنعل والسراويل والثوب والاستنجاء وفعل المتقذرات وأشباه ذلك مما هو فى ضد التكريم » ( كتاب رياض الصالحين ) .



Jacques Derogy e Jean-Noël Gurgand

**LA MORTE IN FACCIA**

IL GIORNO
PIU
LUNGO
D'ISRAELE



JACQUES DEROGY/JEAN—NOEL GURGAND
LA MORTE IN FACCIA
IL GIORNO PIU LUNGO D'ISRAELE
Bompiani, 1980

## جـاك ديروجى
## وجان نويل غورغان
## فى مواجهـة الموت
## أو
## أطـول يـوم فى تاريخ اسرائيل

السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ ، المفروض أنه بالنسبة لاسرائيل يوم الكيبور ، يوم الفداء أو التكفير • والعادة أن ينقضى هذا اليوم من الأصيل الى الأصيل فى البيوت أو المعابد : لا عمل ، لا مواصلات ، لا اتصالات هاتفية الا للضرورة القصوى ، لا زيارات ، لا ضوضاء تزعج العاكفين على العبادة والاستغفار • ولكن ذلك اليوم من أكتوبر ١٩٧٣ كانت الضوضاء فيه مضاعفة ، وكان الفداء فيه مضاعفا ، وكان التكفير فيه أيضا مضاعفا • وكان ذلك هذه المرة على أيدى السوريين والمصريين الذين هجموا على الجولان وعبروا القناة • ورفع العلم المصرى على الضفة الغربية لأول مرة منذ ١٩٦٧ • هكذا بدأ يوم العيد الأكبر فى اسرائيل ، أو بمعنى أصح اليوم الأكبر فى تاريخ اسرائيل القصير • فيه تم القضاء على أسطورة الجيش الذى لا يقهر ، على الرغم من عجرفة رئيس الأركان اليعـازار : « سنهشم عظامهم » • زادت عزلة اسرائيل ، اتسعت الهوة بين الشعب وبين القادة ، ابتعـد أو أبعد معظم قادتها عن مراكزهم ، وقتل خيرة قوادها العسكريين • وها هى ذى من جديد اسرائيل وحيـدة ، ها هى ذى من جديد « اسرائيل ، فى مواجهة الموت » •

الكتاب يقع فى ٤٢٠ صفحة ، وينقسم الى مقدمة وأربعة عشر جزءا ثم خاتمة ، بالاضافة الى سبع خرائط سنحاول أن نعرض لأهم ما جاء فيه •

### نهـاية الأفراح

المقدمة ، عودة ذكية الى مناسبة وفاة بن جوريون واشارة الى الجنـازة التى كان على رأسها الـكبار الثلاثة : مائير ودايان واليعازار • كأن وفاة بن

جوريون كانت نذيرا بنهاية « الكبار » وهذا ما حـدث فعلا بعد حرب ١٩٧٣ .

بعد ذلك يعرج الكتاب على مناسبة أخرى ، سـعيدة هذه المرة ، وهى الذكرى الخامسة والعشرين لاقامة دولة اسرائيل . كان ذلك فى مارس ١٩٧٣ . كانت آخر مرة ظهر فيها بن جوريون « العجـوز » والرمز هنـا أقسى : فكأن نهاية بن جوريون تحمل فى طياتها نهاية أفراح اسرائيل : « كان فرحا ، وأى فرح ، ظـلوا طوال الليل يرقصون ويغنون ، وفى الصبـاح الباكر اصطفـوا على طـول ساحة العرض العسكرى . كان صـياح وضجيج . أما العـرب ، فقد اعتكفوا فى البيوت ، ينصتون ، فى ظل النـوافذ المغلقـة ، الى أصـداء الاحتفال الكبير الذى يقيمه اليهود » .

وبعد أن يقدم الكتاب كبـار الشخصيات الاسرائيلية التى كانت على رأس الاحتفال ، بطريقة لا تخلو من السخرية المضمرة تحت الأبهة والعظمة ، يشير الى الجماهير المحتشدة المسحورة بقوة الطـيران الاسرائيلى ، والتى كانت « ترفع رؤوسها فى حركة واحدة ، وتهتف فى صيحة واحدة ، حين لاح فى الأفق أول تشكيل من الطائرات التى راحت ترسم فى السماء نجمة داود .. كانوا ثلاثمائة أو أربعمائة ألف أخذهم الانفعال فى نفس اللحظة ، حينما ظهـر التشكيل الثانى ورسم فى الأفق بحروف عملاقة منيرة الرقم ٢٥ » .

## العجـــرفة

كان ذلك تمهيدا ذكيا من الكاتبين ليبـدآ بعد ذلك سلسلة من الاشارات الى عجرفة القـادة الاسرائيليين المرتبطة بالتفوق ، وهـذا الأخير مرتبط بجيش الدفاع .

أولا عودة الى حادث اسقاط ١٣ ميج سورية مقـابل ميراج اسرائيلية واحـدة فى ١٣ سبتمبر ١٩٧٣ . الأمر الذى ترجمه غرورا الجنـرال حاييم هيرتزوغ وهو يعلن قائلا : « علينا أن نحافظ على تفوقنا الجوى الذى يعنى فى الشرق الأوسط التفوق الحربى » .

بعد ذلك صدرت صحيفة دافار شبه الرسمية تقول : « ان تحطيم ١٣ طائرة سورية تحذير موجه للعواصم العربية • ويعنى أن جيش الدفاع لن يسمح باستئناف أعمال العدوان برا أو بحرا أو جوا » •

كان ذلك قبل حرب رمضان بثلاثة أسابيع ، ويعلق الكاتبان قائلين : « واسرائيل نائمة مطمئنة الى انتصاراتها » •

## أسلوب التنويم

لم يحاول العرب أن يستخدموا فى تلك الحادثة صواريخ سام أرض — جو ، مع أنهم كانوا يملكون منها الكثير ، وذلك حتى « لا تستيقظ » اسرائيل ، وهكذا ظل الاعتقاد بأن وضع العرب لم يتغير منذ يونيو ١٩٦٧ • وعلى هذا الأساس أيضا تم تفسير اسرائيل لحشد القوات السورية والمصرية على الحدود : « رغبة فى غسل العار » أو « عملية انتقام محدودة » • أما أن يقوم العرب بحرب واسعة النطاق ، فهذا ما لم يرد على بال أحد فى اسرائيل ولم يصدقه أحد • فها هو ذا اسحاق رابين يصرح « بأن مجرد التصديق بأن العرب قرروا الهجوم على اسرائيل لا يعنى فقط العودة على اثارة حقائق تم اثباتها ، وانما يعنى أيضا قضية وجودهم نفسه » • ويعلق الكاتب ساخرا : « ان الجنرالات المنتصرين لا يمكن أن يفكروا فى مثل هذه الشطحات » ، وهو مصداق ما جاء فى أجدادهم : « ستنظرون ولا تفقهون ، وتستمعون ولا تعون » •

« لقد فجر السادات أجهزة آلاته الجهنمية دون أن يثير أدنى ريبة عند الاسرائيليين ، الذين لم يتنبهوا للواقع حولهم الا بعد ساعات من أول وابل من القنابل فوق مواقعهم •• وفى اللقاء الرهيب الذى جمع بين الغفلة والعجلة ، اكتشفوا أن الجيوش العربية ليست فقط قادرة على القتال أكثر من ستة أيام ، بل وقادرة على خوض معركة ليست واثقة من كسبها » •

ومع ذلك فقد كانت التصريحات والتحركات العربية قبل الحرب تدل على أنها قائمة لا محالة ، فلم يخف السادات ولا قواد الجيش هذه الحقيقة ،

بل كانوا يعلنونها فى كل مناسبة ثم يورد الكتاب الكثير من الأمثلة نختار بعضها :

« فى أول فبراير ١٩٧٣ قال السادات وهو يستقبل وفدا سوفيتيا وصل القاهرة فى محاولة لتسوية الخلافات بين البلدين : « الحل الوحيد هو الحل العسكرى » • ثم أعلن الصحفيون على لسانه بعد رحيل الوفد : « ليس هناك طريقة سوى حمل السلاح لتغيير الوضع الحالى وتحمل التضحيات التى لابد منها فى المعركة الفاصلة مع اسرائيل » •

وفى ٢٥ مارس شكل السادات حكومة جديدة « واجبها اعداد مصر لحرب قادمة • علينا أن نشن ضد اسرائيل معارك كبرى تتطلب من جانبنا استعدادات معنوية ومادية » •

وفى مقابلة نشرت فى النيوزويك فى ٢ ابريل صرح الرئيس المصرى « بأن كل شىء فى مصر مجند انتظارا لتجدد القتال ، وهو ما لا يمكن تجنبه » •

وفى ٨ أبريل أبرق مراسل الصنداى تايمز من القاهرة الى صحيفته يقول : « بعض الظواهر تدل على أن السادات ينوى فعلا شن حرب ضد اسرائيل لكى يخرج من الطريق المسدود » •

وفى ٢٥ من الشهر نفسه أعلن السادات فى أول اجتماع للحكومة الجديدة « أن قرارى بشن الحرب ضد اسرائيل فى وقت قريب لا يمكن الرجوع فيه »•

كل يوم كان يحمل نداء الى الحرب •

فى شهر يونيو كان السادات فى دمشق فكتبت الأهرام : « كان موضوع المباحثات هو القيام بعملية مشتركة ضد اسرائيل » •

بعد ذلك قام الرئيس المصرى بعدة زيارات للدول العربية المنتجة للبترول ، وبعدها بقليل كتبت الأهرام تقول : « لا بد من خلق حالة توتر قصوى فى المنطقة » •

وفى القاهرة تم عقد مقابلات بين الرئيس المصرى والرئيس السورى •

والغريب أن اسرائيل كانت على علم بكل ما يقـال وما يجرى ، ولكنها كانت تسىء التفسير « كانت كل معتقداتها قائمة على أساس أن مصر ليست فى حال تسمح لها بمواجهة اسرائيل فى العمق ، وبالتالى بخوض معركة ليس من شأنها الا أن تؤكد التفوق الاسرائيلى » •

## الصحافة العالميـة
## وقعت فى الفـخ

وعلى الصـعيد العالمى ، وقعت الصحافة هى الأخرى فى فخ التضليل الذى نصبه العرب • وراحت تروج الأفكار التقليدية عن عجز مصر عن المغامرة بالدخول فى معركة يكون احتمال الانتصار فيها ضئيلا • وزاد هذا الاعتقاد خصوصا بعد مغادرة الخبراء السوفييت لمصر • فقد كتبت صحيفة ذا فينانسيان تايمز تقول : « الجيش المصرى غير مستعد على الاطلاق للقتال •• فمنذ أن رحل الخبـراء السوفييت عن مصر حاملين معهم جزءا ضخما من معـداتهم الحـديثة ، فقد الجيش المصرى ، ليس فقط قدرته الهجومية ، بل وقـدرته الدفاعية أيضا » •

وفى ايطاليا كتبت صحيفة لاستامبا : « استشرى الفساد ، ولم يعـد الجيش المصرى يملك من الذخيرة ما يكفيه أكثر من أسبوع » •

وفى فرنسا كتبت صحيفة الفيجارو تقول : « فضائح ، ومرارة ، وخيبة أمل فى مصر • ضباط الوحدات المتمركزة على خط القناة لا يقيمون فى الجبهة أكثر من يومين فى الأسبوع ، أما بقية الأسبوع فيمضونه فى القاهرة بموجب أجازات مزورة •• مات ناصر ورحل الخبراء السوفييت وأصـبح الجيش بلا روح » •

هذا الاجماع على عدم كفاءة الجيش المصرى لخوض المعركة • يعلق عليـه الكتاب قائلا : « وسوف يفخـر المصريون يوما بأنهم نجحوا تماما فى حملتهم التضليلية » • ثم يهزأ من الصحفيين الذين وقعوا ضحية هذه الحملة •

## التراخى والاهمال الاسرائيلى

كان الوضع فى اسرائيل يميل الى تصديق الاعلام المطمئن لأنه يتمشى مع رغبة القادة فى بث الطمأنينة بين الشعب ، كما يتمشى مع سياسة الاعلام الاسرائيلى فى تأكيد الأمن الداخلى . كان من رأى دايان أن « مصر تتأهب للحرب منذ ثلاث سنوات ، أى منذ ٢٤ ديسمبر ١٩٧٠ ، التاريخ الذى أعلن فيه السادات أن الحرب على وشك القيـام ، فاضطررنا الى اعلان التعبئة العامة فى اسرائيل : مئات الآلاف من الجنود على الجبهة بمعـداتهم ووسائل مواصلاتهم ، ومن حـافلات مدنية وسيارات خاصة ، مما أثقل الاقتصـاد .. كانت السنة الثالثة التى يعلنون فيها أنها الحاسمة ... وخلال الشهور الستة الأخيرة حددوا موعدين أو ثلاثة لشن الحرب وفى كل مرة يقـرر السادات تأجيل الحرب فى آخر لحظة » .

وهكذا لم يهتم الجنرالات بتحركات القوات العربية على الحدود ، ولم يكترثوا للتقارب المفاجىء بين سوريا والأردن ، ولا للزيارات المتكررة للسفارة السوفيتية فى دمشق ، ولا للقـاء الأسد والسادات بالذات . كان تفسـير اسرائيل واحدا : ان القادة العرب يحاولون « تهدئة الرأى العام فى بلادهم ولكنهم غير قادرين على شن حرب » .

ومنذ حرب يونيو لم تعد أية تصرفات عربية تستطيع « منـع اسرائيل من الاستمرار فى النوم » وفى أواخر ذلك الصيف كان هناك ما يشغل الكبار فى اسرائيل وهو « انتخابات ٣٠ أكتوبر » كان أصدق تعبير عن الشعور بالأمن الذى يسود اسرائيل فى ذلك الوقت البيان الانتخابى الذى وزعه الحزب الحاكم : « الهدوء يسود شواطىء القناة كما يسود فى صحراء سيناء وفى غزة والضفة الغربية لنهر الأردن والجولان .. الخطوط آمنة ، الجسور مفتوحة ، والقدس موحدة ، وتم تشييد مستعمرات يهودية جديدة ، والوضع السياسى مستقر . وهذا نتيجة للسـياسة الحاذقة الجريئة الحكيمة » .

وكان عنوان البيان هو « خط بارليف » ، وكان يضم صورا لست شخصيات من الحزب ، مائير وآلون وابا ايبان ، وبنحاس سابير ، ويعقوب هازان .

وانعكس ذلك على جبهات القتال ، فى ٢٥ سبتمبر وصل قائد الاحتياط الاسرائيلى الجديد ويدعى موتى Motti ، الى خط القناة فوجد أن الجنود لاحتياط الذين كان من المفروض أن يأخذوا مكان القوة الدائمة فى المركز لم يصلوا بعد • ثم فاجأه الحاضرون بأنهم يريدون قضـاء العيد فى بيوتهم • ولكن الصـدمة الحقيقية الأولى له كانت فى المساء ، حينما اجتمع باحدى المجموعات ، فقد صرح بعـد ذلك قائلا : « من الصعب أن يتصور الانسان عدم مسئولية أسوأ من هذا ، ولا انعدام ضبط أسوأ من هذا » • أما الصدمة الثانية ، فكانت فى الصباح حينما خرج للتفتيش على المركز ، فعلق قائلا : « كان جو بيكنيك لا أكثر ولا أقل » • أما الشاويش الذى استلم العهدة فقد وقع عليها رغما عنه : « فقد كانت العهدة فى حالة يرثى لها » •

كان هذا القائد دائم الشكوى من الاهمال الدائم وخصوصا من ناحية البحر حيث يمكن للمصريين النزول على الشـاطىء • ثم قام بتحرير تقرير لقيـادة المنطقة ، فأخبروه بأنهم « على علم وسيهتمون بالموضـوع » • ثم لاحظ موتى Motti أن كشاف أحد الأسلحة به عطب ، فاتصل بالقيـادة « فضحكوا فى وجهه قائلين هذا كل ما لدينا » • كان استخفاف قادته يبـدو له أخطر مما يقرؤه فى الصحف من حشد القوات والمعدات المصرية البعيدة المدى على شاطىء القناة الغربى •

« كان الاعتقاد السائد هو أن قضاء فترة فى هذا القطاع بمثابة شبه أجازة تحت شمس افريقيا الدافئة » •

## الفساد الاجتماعى

اذا كان وقف اطلاق النار ، بطلب من العرب ، فى ١١ يونيو ١٩٦٧ قـد أوجد عند الاسرائيليين معنى الأمان ، فقد تجسد هذا المعنى فى خط بارليف • ثم ، وفى ذات الفترة جاءت « المساعدات الخارجية المكثفة التى تخطت نفقات الحرب عدة مرات ، فقد تلقت اسرائيل بين عامى ١٩٦٧ و ١٩٧١ ما قيمتـه ٥٠٠ر١ مليون دولار من المساعدات » •

« انتصار عسكرى ، وأمن يتمثل فى خط ( بارليف ) ، وأموال طائلة لتعويض الخسائر وحل المشكلات الاقتصادية • كل ذلك أوجد احساسا بالتحرر فى المجتمع الاسرائيلى ونشوة سحرية أشبه بالحلم » •

وككل حالات الانتصار فى التـــاريخ يعقبها فترات يشـــعر فيها الناس بالرغبة فى الثراء والاستمتاع ، وفى ذلك تكمن بداية الانهيار • « بعد حرب ١٩٦٧ بدأ الأمل يتحقق فى حياة عادية ، وبدا أن التهديد العربى لم يعـــد له وجود • وكانت الحياة العادية المطلوبة هى الحياة الغربية » • سيارة لكل سبعة أشخاص ، تلفزيون لكل عائلتين من ثلاثة •

فى أواخر عام ١٩٧٢ كانت اسرائيل قد عوضت كل ما فاتها فى ســـباق الرفاهيـــة والترف العصرى ، واستشرت فيها أمراض المجتمعات المتـــرفة ، وأصبح « السكارين » يشاهد على كثير من الموائد • « فقد أخذت اسرائيل فى التخمة والسمنة •• وأصبح كل شىء يجرى على عجل ، وكان الناس يستشعرون أن الزمن محدود •• وعبادة العجل الذهبى لم تجذب الســـعادة على اليهود فى يوم من الأيام » •

## نجوم المجتمع الجديد

أصبح الأثرياء يقضون أجازاتهم الشتوية فى مشاتى سويسرا العالمية ، ويشترون الأثاث السكندينافى لفيلاتهم الجديدة ، ويقيمون حفلات الخطوبة لأبنائهم فى الهيلتون ، ويدعون اليها نجوم المجتمع الجدد وهم ضباط الجيش الذين أصبحوا حديث العالم ، والذين كانوا من قبل ذلك يمارسون أعمالهم فى مكاتب عادية ، ثم أصـــبحت الأحزاب تخطب ودهم ، والشركات الكبـــرى تتخاطفهم • « وفى الماضى ، قبل حرب ١٩٦٧ ، كان جيش الدفاع مقدســـا ، كان خلاصة المجتمع ، وكان أفراده منزهين عن الدنايا ، وكانوا يجدون متعتهم الوحيـــدة فى التضحية فى سبيل الوطن » • ويروى أن بن جوريون ، وكان رئيســـا للوزراء ، سمع أن جنـــديا سرق ، وعلم قائده ولم يعاقبه ، فغضب رئيس الوزراء وعزل القائد وكان من خيرة ضباط الجيش • ثم علل أمام البرلمان هذا الاجراء قائلا : « ان جيشنا يجب أن يظل طاهرا » •

ولكن ما أبعد البون بين هذه الحادثة وعام ١٩٧٣ ، فقد دفع الجيش ثمن الانتصار . أصبح معبود الجماهير . وتجاوز بعضهم الحدود ، فصنع لنفسه حاشية من الصحفيين والمصورين يتبعونه فى كل مكان . كان أحدهم يباهى بأن لون جسمه البرونزى بتأثير أشعة الفلاش . أما « دى كايو » فلم يعد يفتح فمه للكلام الا أمام ميكروفون . وهكذا تدفق الجنرالات على جبهة المجتمعات الراقية بدلا من جبهة القتال .

وهناك القصص الخيالية التى تروى عن ترفهم الذى فاق كل الحدود . ومن الأمثلة التى لا تحصى فى هذا الصدد الجنرال رحبعام زيفى Rehvam Zeevi ، فقد كان قائدا للمنطقة الوسطى ، فأمر ببناء مركز للقيادة بالقرب من رام الله تكلف ١٧ مليون فرنك فرنسى يضم كل وسائل الترف والتسلية .

## دايان أسوأ مثال

وتكون الطامة الكبرى حينما يأتى المثال من دايان نفسه : « فقد احتفظ لنفسه بنصيب الأسد من انتصار ١٩٦٧ » . كان يعرف أن بن جوريون يثق به ، وأن الأمريكان يعتبرونه رجلهم فى اسرائيل ، وأن العرب يعملون له ألف حساب ، الأمر الذى أكسبه نفوذا بعيد المدى بين الجماهير ، حتى أصبح أسطورة حية ، والأساطير لا يمكن الجدال فيها .

فمن المعروف عنه أنه مولع بالحفريات والآثار ، فلم يكن يكتفى بالقيام بالحفريات لحسابه داخل حدود اسرائيل ، وانما كان يمارسها أيضا فى الأراضى المحتلة التى تحميها الاتفاقات الدولية . ولم يكن يتورع ، فى هذا السبيل ، عن استخدام سيارات الجيش وطائرات الهليوكبتر والمؤن الخاصة بالعسكريين كما كان يستخدم المرشدين من الجيش .

ومن وسائل لهوه المفضل ، النساء . وقد تجاوز فى ذلك كل الحدود التى لا يمكن لرجل فى مثل مركزه أن يتجاوزها ، ومما يروى عنه أنه ، فى غمار حرب الاستنزاف ، كانت هناك حسناء شرقية تدعى اليشيفا Elisheva ، فى الثانية والعشرين ، تعمل فى أحد بيوت الأزياء . وحدث أن اتصلت هاتفيا

بوزارة الدفاع وطلبت التحدث مع الجنرال دايان ، فأعطوها الخط بكل بساطة. فتوسلت اليه أن يستغل نفوذه « ليغلق الملف الخاص بعملية تزوير شـيكات » تورط فيها شقيقها • ولم يوافق دايان وحسب ، بل أعطاها موعدا تلته مقابلات في الفنادق • وفضلا عن ذلك ، فقد كان دايان ، أثناء وجودها يتصل بوزارته أو بأركان الحرب في أمور تتعلق بالدفاع القومى • ومن يدرى فلعل أم الفتاة قد قامت بتسجيل جميع الاتصالات التليفونيـة التى تمت بين دايان وابنتهـا بحجة « الضغط عليه » • وقد استمرت هذه الفضيحة عامين • وأخيرا عهدت الأم بالأشرطة الى رئيس مكتب الشئون غير العـادية • وسرعان ما اختفت الأشرطة •

## العجـــرفة

كان دايان دائم السخرية من السادات • « السادات لا يساوى قذيفة » وكم تندر عليه ! وانعكس هذا على الضباط والجنود •• والأمثلة لا تحصى • منها أن القائد موتى Motti لاحظ أن المصريين يقومون بتحصين مواقعهم • فحاول من جانبه ، أمام تقصير رؤسـائه ، أن يحصن بعض المواقع الضعيفة واحتاج في ذلك الى عـدد كبير من أكياس الرمل ، فشكا رجاله الى رئيسـه المباشر : « اننا لم نأت هنا لكى نقوم بأعمال الحفارين » ثم أضاف القـائد نفسه موجها حديثه الى موتى : « لا أحب أن يتحول جنود جيش الدفاع الى الأشغال العامة » •

وفي ليلة السادس من أكتوبر ، استقبل موتى Motti ، قائد قطاعه الذى جاء ليتناول معه طعام الافطار في آخر أيام الصـيام ، فانتهز بعض الجنود الفرصة وقاموا بتوجيه بعض الأسئلة اليه :

— لقد أرسلنا اليكم التقرير تلو التقرير عن استعداد المصريين للحرب • الموقف في رأينا خطير ، وأنتم لا تتحركون •

— لا تخافوا • انها تدريبات • فليست هذه أول مرة • في رأيى ، لن يفعلوا شيئا ••

اننا مستعدون ، وفى أسرع من البرق ، لتحطيمهم وتمزيقهم •

فأردف جندى آخر قائلا :

— أمامنا ستة مواقع من الكوماندوز المصريين ، ونحن ٢٠٠٠؟

فقاطعه القائد بعجرفته السابقة :

— لا تحدثنى عن هؤلاء الكوماندوز •• انهم لا يساوون عقب سيجارة •• طلقة واحدة ويولون الأدبار •

وحين حاول موتى Motti ، التدخل مشيرا الى كفاءة المصريين التى ظهرت خلال حرب الاستنزاف ، عارضه قائد القطاع :

— دعك من هذا ، فأنا أدرى بهم ، لا يساوون شيئا • ونحن مستعدون لأى احتمال •

ثم غادر الموقع مع آخر ضوء للنهار •

## ويك اند

ما دام هذا رأى القواد ، فلماذا لا يستغل الاسرائيليون الأيام الأربعة الأجازة التى تسبق الكيبور • واكتوبر دافىء • فالى السيارات ، الى « البيكنيك وحمامات الشمس » خرجوا جميعا • فمن لم يكن منهم على شواطىء البحر الميت ، أو الأحمر أو الأبيض أو بحيرة طبريا ، كان ما زال على الطريق •• أما الذين لا يملكون سيارات خاصة ، فقد كانت هناك شركة ايجد Egged التى وضعت ثلاثة آلاف حافلة تحت تصرفهم ••

وحينما بدأت الأيام الرهيبة التى تفصل بين العام اليهودى وعيد الكيبور ، راح المتدينون يتوسلون الى ربهم أن يمن على الناس وعلى الشعوب بالهناء والسلام بمناسبة العام ٥٧٣٤ ، وهم يجهلون ما يخبئه لهم هذا العام من مفاجآت •


GUY LAZORTHES
L'OUVRAGE
DES SENS

GUY LAZORTHES
L'OUVRAGE DES SENS
Flammarion, 1986

## أعاجيب الحواس

## ( نوافذ ضيقة على الواقع )

## تأليف : غى لازورت

**« وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم »**
( ٣٨ — الأنعام )

* * *

من المعروف أننا ندرك العالم الخارجى عن طريق مجموعة الحواس التى نتمتع بها ، وهى : السمع والبصر والذوق والشم واللمس ، خمس حواس ، فقط ؟ لماذا لا يكون هناك أكثر من خمس ؟

ان الحواس البشرية تبدو قاصرة ومحدودة ، اذا ما قورنت بغيرها من الحواس ، التى تتمتع بها المخلوقات الأخرى ، فهناك أنواع من الحيوانات لها حواس مماثلة لحواسنا ، لكنها أكثر كفاءة وأكمل أداء ، وهناك حيوانات مزودة بوسائل ادراكية عجيبة ، فالخفاش مثلا يهتدى فى تنقله بصدى الأصوات التى يصدرها أثناء طيرانه .

أما الطيور المهاجرة فهى تقطع آلاف الكيلو مترات فى طريقها الى مواطنها الشتوية بلا ملل ولا كلل ولا خطأ ، وسمك القرش المعروف بسرعته يتمتع بنظام توجيه مزود بموجات فوق صوتية قوية، لا تسمعها الأذن Ultrason تخترق مجال الصوت ، هذا النظام يسمح لسمك القرش أن يميز بين أنواع اسمك الأخرى التى تتحرك حوله ، والأسماك تدرك وتستقبل الموجات التى تصدرها جيرانها من الأسماك أو تعكسها الصخور .

ومن ناحية أخرى ، ألا يحق لنا أن نضيف الى حواسنا الخمس حاسة سادسة ، وهى حاسة الاتجاه ؟ ، وسابعة هى حاسة التوازن ؟

ان الطريقة التى تستقبل بها المراكز المتخصصة فى المخ المثيرات الحسية وتحل شفرتها وتصـل بها الى تصور للواقع . هذه الطريقة تعتبر ثمرة تطور طويل عجيب للمخ ، يقدمه لنا غى لازورت ، أستاذ جراحة وتشريح الجهاز العصبى ، فى كتابه الصغير فى الحجم ، الحافل بالمعلومات الجديدة الدقيقة ، بعنـوان :

« أعاجيب الحواس ـ نوافذ ضيقة على الواقع » .

* * *

( بدءا بسمكة القرش الهائلة ، وحتى النملة الصغيرة ، ومرورا بالطيور المختلفة ، تتمتع الحيوانات جميعا بحاسة اتجاه عجيبة . فما دليلها فى الاتجاه ؟ وعلام اعتمادها فى الاهتـداء ؟ نقول : قبـة السماء ، ومجال المغناطيسية سواء بسواء ) .

اعتاد الناس أن يطلقوا على حاسة الاتجاه الحاسة السادسة ، وقد ظلت قوة هذه الحاسة وقدرتها عند بعض الحيوانات سرا غامضا زمنا طويلا ، فكيف يتسنى لها أن تعرف طريقها وتسافر آلاف الأميال دون الاستعانة بما نملكه نحن البشر من أجهزة وأدوات ووسائل : من مثل مقياس الزوايا ، والبوصلة واللاسلكى ، والخرائط المختلفة ، والأقمار الصناعية ؟

ان حاسة الاتجاه عند بعض الحشرات مثـل النمل والفراش والنحل ، وعند الأسماك ، مرتبطة بقوة الشم عنـد هذه المخلوقات ، فى حين أن هذه الحاسـة تتعلق عنـد بعض الحيوانات الأخرى بحساسيتها الخاصـة لمجال الجاذبية الأرضـية ، كمـا أن هذه الحاسـة ترتبط عنـد أنواع أخرى من الحيوانات بالنظر .

يقول التاريخ ان الصينيين اكتشفوا فى قديم الزمان أن قطعـة من خام الحديد سميت فيما بعد بالمغناطيس ، حينما تدور على محور دون عائق فانها تأخذ اتجـاه شمال / جنوب ، وعلى ذلك فقـد كان البحارة الصينيون منـذ القرن السـابع الميلادى يتنقلون فى أسفارهم بواسـطة الابرة المغناطيسية .

أما البوصلة فلم تستعمل فى حوض البحر المتوسط الا فى القرن الثانى عشر الميـلادى ، وفى عام ١٨٢٠ لاحظ ( H. C. Hetsted ) ( ١٧٧٧ — ١٨٥١ ) ما يحدثه سلك معدنى به تيار الكترونى من تأثير فى ابرة البوصلة : وهكذا ظهر المغناطيس الالكترونى •

وفى العام نفسه أعلن ( A. M. Ampère ) ، ( ١٧٧٥ — ١٨٣٦ ) أن مفعول الابرة المغناطيسية يتضاعف اذا لف السلك فى حلزون أو فى خط لولبى ، وبذلك اخترع الالكترون المغنـاطيسى ، وفى عام ١٨٦٠م جمـع ( Maxwell ) الظواهر الالكترونية والمغناطيسية فى منطوق نظريته الشـهيرة القـائلة بأن ترددات المجالات الالكترونية والمغناطيسية تتراوح ويمكن أن تنتشر فى موجات الكترونية مغناطيسية ، تبلغ سرعة الضوء ، أى ٣٣٠ر٠٠٠ m/s فى الفضاء •

لقـد بدأ تاريخ « الحاسة المغناطيسية » عام ١٩٦٢ م ، حينما اكتشف العـالم ( H. Low Enstam ) أن بعض الحيوانات الرخوة اللا فقـرية التى تعيش فى المناطق الحارة مزودة بلسان خشن غنى بعناصر المغناطيسية ( Fe304 ) وقد تساءل العـالم عما اذا كانت هذه الحيوانات يمكن أن تتفاعل مع مجال المغناطيسية أو الجاذبية الأرضية ، ثم ظهرت بحوث أثبتت صحة ذلك •

وفى عام ١٨٩١ م نسب كثير من العلماء الى الجاذبية الأرضية دورا هاما فى التحكم فى حاسة الاتجاه عند الطيور المهاجرة ، ولكن الدليل العلمى على ذلك لم يظهر الا منذ عهد قريب •

بعد ذلك ثبت أن عددا كبيرا من الحيوانات تملك القـدرة على تركيب وتكوين الأكسيد الطبيعى لمعـدن المغناطيس ، وعلى ذلك ، وبفضـل هذا المغناطيس الطبيعى ، فان هذه الحيوانات تتـأثر بالمغناطيسية الأرضية التى تعتبر ضعيفة جدا ، حيث تتراوح بين ٣ر٠ فى المناطق المدارية و٧ر٠ فى المناطق القطبية ، وبذلك يمكن القول بأن هذه الحيوانات مزودة بنـوع من البوصلة الحيـة •

* * *

ان الكثير من الحيوانات اللا فقرية الدنيا ، حينما تتنقل من مكان الى مكان ، لا تفعل ذلك بهدف الوصول الى مكان معـــين ، وانما هى تهيم على وجوهها دون قصد أو هدف ، حتى تصادف مصدرا لمثيرات تجتذبها اليها ، واذا كان من بين الحشرات أنواع كثـــيرة تهاجر فى جماعات ( بعض أنواع الجـــراد والفراش ) حسب قوة الرياح التى تحملها ، فان الكثير منها يتمتـــع بحاسة اتجاه متطورة للغاية مرتبطة بحاسة الشم ، أو حاسة البصر ، وكذلك بحاسة مغناطيسية كما أثبتت بعض التجارب الحديثة •

ان بعض أنواع النمـــل مزود بحاســـة البصر ، والبعض الآخر كفيف لا يبصر غير أنها جميعا تتمتع بحاسة شم فائقة ، فهى فى بيتها الحالك الظلمة تستطيع بواسطة هذه الحاسة أن تصـــل الى مصادرها الغذائية ، وهنـــاك نوع من النمل ( P. Tarsatus ) الذى يعيش فى الصحراء لا يهتـــدى فى اتجاهه بحاسة الشم ، حيث الرياح يمكن أن تزيل كل آثار المواد الكيماوية ، ومع ذلك فان هذا النمل يستطيع بكل سهولة أن يعرف طريقه ، وذلك بواسطة حاسة الابصار ، وبالاهتداء بالقبة السماوية •

أما فيما يتعلق بالنحل ، فان حاسة الاتجاه عندها حيرت العلماء منـــذ زمن طويل ، فالنحلة مزودة بعين تحل محـــل ملكة ادراك الزوايا عنـــدنا بل وتفوقها بكثير ، وعن طريق أســـطح هـــذه العين التى تبلغ ( ٦٣٠٠ سطح ) تستطيع النحلة أن تدرك مصدر الضوء ، حتى ولو كانت الشمس تختفى خلف السحب ، فان النحلة تعرف طريقها ، ولو عن طريق فرجة صـــغيرة زرقاء فى السماء تسمح بمرور ضـــوء الشمس عند عبـــوره طبقات الجو العليا وراء السحب •

بل هناك ما هو أعجب من ذلك ، فلكى تتكيف النحلة مع المعلومات التى تستقبلها عينها أثنـــاء تجوالها وطيرانها ، فان مخ النحلة مجهز بنـــوع من الكاميرات التى تقوم بتسجيل زاوية النحلة بالنســـبة للشـــمس ، والوقت الذى تستغرقه فى الطيران بهذه الزاوية ، وحينما تعثر النحلة على مصـــدر غذاء ، يكفيها أن ترجع الى هـــذه المعطيات أو المعلومات المسجلة لكى تعرف

جهة الخلية ، والمسافة التى قطعتها ، ثم تعود اليها فى خط مستقيم ، بعد ذلك تخبر النحلة زميلاتها بمكان الغـــذاء عن طريق الرقصـــة الشهيرة التى بدأ اكتشافها فى عام ١٩٦٧ م ، كذلك فان الرائحة التى تتركها النحلة على طريقها تساعدها فى العودة من حيث أتت •

وقد أثبتت التجارب أهمية معطيات طريق الذهاب ( زاوية الاتجاه مع الشمس والوقت المستغرق فى الطـيران ) ، وضرورة حساب هذه المعطيات لتتمكن النحلة من معرفة طريقها والعودة من حيث خرجت ، وذلك عندما تم صيد نحلة عند مدخل الخلية ، ونقلت الى مسافة كيلو متر ، فلم تتمكن من العودة الى الخلية ، وذلك لعــدم توفر المعطيات والمعلومات الخاصة برحلة الذهاب التى لا بد منها لمعرفة طريق العودة •

كذلك أثبتت بعض الدراسات الحديثة أن النحلة تحدد اتجاهها أيضـــا اعتمادا على المغناطيسية الأرضية ، بفضل مغناطيس باطنى فى داخل جسمها ، وقد ثبت أيضا أن الأخطاء التى ترتكبها النحلة فى مجال الاتجاه وثيقة الصلة بالتغيرات التى تطرأ على مجال المغناطيسية الأرضية ، ويؤكد ذلك أن فرصة الخطأ تنعدم تقريبا حينما ترقص النحلة فى موازاة خطوط الجاذبية الأرضية ، بعد ذلك تبين أيضا أنه فى حالة وجود قوة مغناطيسية عالية ، فان النحل تبنى صفوف خليتها فى اتجاه غير عادى ، ومما يدل على وجود عناصر مغناطيسية داخل النحل اكتشاف العــديد من ذرات المغناطيس فى جسم عدد من النحل عند تشريحه ، وذلك فى المنطقة الخلفية من البطن •

* * *

## الأســـماك

أما بالنســـبة للأسماك والطيور ، فقد أجريت التجارب الكثيرة للكشف عن أسرار الهجرات التى تقوم بها فى أوقات معينة من العام ، والجدير بالذكر ان هذه الهجرات تتكرر فى حياة هذه المخلوقات من ولادتها حتى مماتها بشكل دائرى ، فهى تقصد المناطق الدافئة فى الشتاء بحثا عن الحرارة ، أو تذهب الى مناطق تساعد على التكاثر ثم تعود •

ومنها ما يهاجر بحثا عن ظروف معيشة أفضـــل ، ولا يرجع الى وطنـــه الأصلى .

لقـــد كشف العـــلم أن بعض الأسماك مثل الرعاش مجهزة فى رؤوسها بأعضاء تصدر شحنات كهربائية ، وتتراوح هذه الشحنات بين عدة فلتات الى عشرات الفلتات ، لتصل فى بعض الأحيان الى مئات الفلتات عند الثعـــابين الكهربائية التى تعيش فى الأمازون ، وتستخدم السمكة هذه الشحنة الكهربائية التى تصدرها فى شل حركة فريستها .

ولقد تطورت مقدرة بعض الأسماك على ادراك المجـــال الكهربائى الى درجة عالية ، وبالذات عند الأسماك التى تعيش فى أعماق البحار ، حيث تصبح الحواس الأخرى عاجزة عقيمـــة ، من ذلك أن بعض الأنواع التى تعيش فى نهر النيـــل Normyridés حيث الميـــاه تكون عكرة ، فلا تســـمح لها بتمييز الفريسة أو الأزواج ، فان هذه الأسماك تكون مزودة بجهاز يصـــدر مجالا مغناطيسيا يسمح لها بمراقبة أى نوع من المخلوقات تعبر هذا المجال ، كما أن هناك أنواعا أخرى من السمك تصدر شحنات كهربائية بواسطة جهاز موجود فى ذيلها المدبب ، وبواسطة الخلايا الحسية فى رأسها ، تشعر هذه الأسماك بوجود أى شىء يعكر مجالها المغناطيسى ، كذلك فان هذه الأسماك تستخدم هذا الجهاز لمعرفة مجال تنفس فريستها ، حتى وهى مدفونة تحت الرمال .

وقد كشف النقاب أخيرا عن أن بعض الأسماك التى كان الاعتقاد السائد أنها غير كهربائية ، تصدر فى الواقع شحنات عالية من الكهرباء لتحديد مكان فريستها ، ومن هـــذه الأسماك ما يمكنها اكتشاف مجالات كهربائية غاية فى الضآلة ، بفضل أجهزة الكترونية موجودة فى خياشيمها ، فبعضـــها يستطيع الشعور بمجال كهربائى يصل الى واحد من مليون من الفولت ، ولتقدير هذه القوة نقول : ان الانسان لكى يشـــعر بدرجة التنميل يلزمه شحنة كهربائية تفوق هذه الشحنة بمقدار ٢٥ مليون مرة ، وهناك احتمال وجود بعض الأسماك التى تستقبل المجال المغناطيسى الأرضى ، وتستخدمه فى اتجاهها .

* * *

أما الطيور فانها تتمتع بملكة اتجاه يرجع تطورها الى عدة ملايين من السنين ، فهناك بعض الطيور المهـاجرة تقطع آلاف الكيلو مترات فوق الماء واليابسة لكى تصل الى المناطق التى تقضى فيها فصل الشتاء •

وهناك بعض الدراسات التى تحاول أن تفسر الأسرار التى وراء مقدرة هذه الطيور على الاتجاهات الفصلية أثناء الليل وأثناء النهار •

ويبدو أن العوامل الوراثية تلعب دورا هاما فى مجال هجرة بعض أنواع الطيور ، فالصغار التى تهاجر منها لأول مرة تحافظ على الاتجاه ، الا أنهـا تصل الى مناطق شتوية تختلف عن المناطق التى تردد عليها كبارها ، فى حين أن الكبار تتمكن من الوصول الى المناطق التى اعتادت عليها ، وفى أغلب الأحيان تتم الهجرة فى عائلات ومجموعات ، وهنا يلعب التقليد دورا هاما •

وتقوم الذاكرة أيضا بمهمة كبيرة فى تحديد الاتجاه عند الطيور المهاجرة التى تتمتع بأعداد لا حصر لها من الحواس السمعية والبصرية ، بل واللمسية أيضا ، مثل عوامل الطقس • ان بعض الأنواع من الحمام الأليف يتعرف على برجه بعـد غياب يستمر أعواما ، أما النورس وهو طائر مائى ، فانه يتمتع بذاكرة عجيبة ، فقد نقل عدد منه الى منطقة تبعد أربعمائة كيلو متر عن موطنه الأصلى ، فتمكن من العودة الى نقطة الانطلاق بسرعة أكبر فى المرات التالية عن المرة الأولى • أما الطيور التى تهاجر فوق المحيطات فان العلامات التى يمكن أن تعينها فى التعرف على الأماكن تكون نادرة وغير واضحة ، وهنا تستدل الطيور على طريقها بوجود التيارات المائية الباردة أو الساخنة ، ودرجة حرارة الجو ، ودرجة الرطوبة •

وهناك علامات أخرى تسـتعين بها الطيور فى اتجاهها ، فالطيور التى تهاجر نهارا تستعين فى اتجاهها بالشمس ، وقد توصل أحد العلماء عام ١٩٥١م بعد عدة تجارب على الزرازير التى وضع بعضها داخل أقفاص دائرية ، فى جو صاف ، فتبين أن هذه الطيور تحاول أن تطير فى الاتجاه الذى تطير فيـه

أنواعها عادة فى الفصل نفسه من العام ، أما فى حالة وجود الغيوم أو تغطية الأقفاص فان الطيور لا تحاول الطيران ، كذلك فقد توصل العالم الى النتائج نفسها باستخدام شمس صناعية .

وقد أثبتت التجارب العديدة التى أجريت على أنواع أخرى من الطيور منها الحمام ، أنها تستخدم الشمس فى اتجاهها ، كذلك فقد ثبت أن الطيور تعوض حركة الأرض بالنسبة للشمس بواسطة « ساعة داخلية » مضبوطة حسب توالى الليـل والنهار ، وكذلك فان بعض الحيـوانات الأخرى ، غير الطيور ، مثل الأسماك تستعين بالشمس فى اتجاهها .

أما الطيور التى تهاجر ليلا ، فهى تستطيع فى الظلام أن تميز المرتفعات والأنهار ، والبحيرات ، والشواطىء ، وهى ترى وتسمع الأمواج ، واذا لم تكن هناك علامات تساعدها ، فانها قد تستعين بالقمر والنجوم ، كذلك فانها تستخدم فى اتجاهها جهازها السمعى ، اذ تستقبل الأصوات الأرضية وتصيح عاليا ، لكى تستقبل صدى أصواتها التى ترجعها الأرض .

وحمام الزاجل أشهر من أن نذكر به فى مجال الاتجاه والمهارة فى معرفة طريقه ، وهو كأغلب الطيور يتمتع بقوة ابصـار حادة يستغلها فى أسـفاره القصيرة ، أما فى المسافات الطويلة فليس من المعقول أن يعتمد على حاسة الابصار ، ومع ذلك فهو لا يخطىء طريقه .

ومما يدل على أن الزاجل لا يستخدم حاسة الابصار فى طيرانه الطويل ، التجربة التى أجريت على هذا النـوع من الحمام ، فقد تم تركيب عدسات لاصقة لعدد منه ، بحيث تحجب عنـه الرؤية ، ومع ذلك فقد عاد الى برجه بالسهولة نفسها التى عاد بها أقرانه الذين لم تحجب عنهم الرؤية .

ومن الصعب التصديق بأن الحمام الزاجل يتمكن من تحديد اتجاهه ليلا حينما تكون السماء ملبـدة بالغيـوم ، حيث لا يمكنـه أن يرى الشمس ، ولا القمـر ، ولا النجوم ، ففى عام ١٩٦١ م لوحظ أنه اذا ثبتت قطـع من المغناطيس فوق رءوس بعض الحمام ، فانه يستحيل عليه تماما أن يحـدد

اتجاهه حيث كانت قطع المغناطيس تسبب اضطرابات عنيفة فى البوصلات الداخلية المزود بها الحمام ، هذا فى حين أن الحمام الآخر توصل بسهولة الى أبراجه •

ومن ناحية أخرى فان ما يطرأ على المجال المغناطيسى الأرضى من تغيرات يؤثر فى مقدرة الحمام على الاتجاه ، وكلما زادت هذه التغيرات زادت اضطرابات الطيور ، ويجدر فى هذا الصدد أن نذكر أن بلدية باريس تحاول أن تبعد الحمام عن العاصمة لما يسببه من ازعاج وما يخلفه من قاذورات ، وذلك باقامة مجالات الكترونية مغناطيسية فى عدة مناطق من العاصمة •

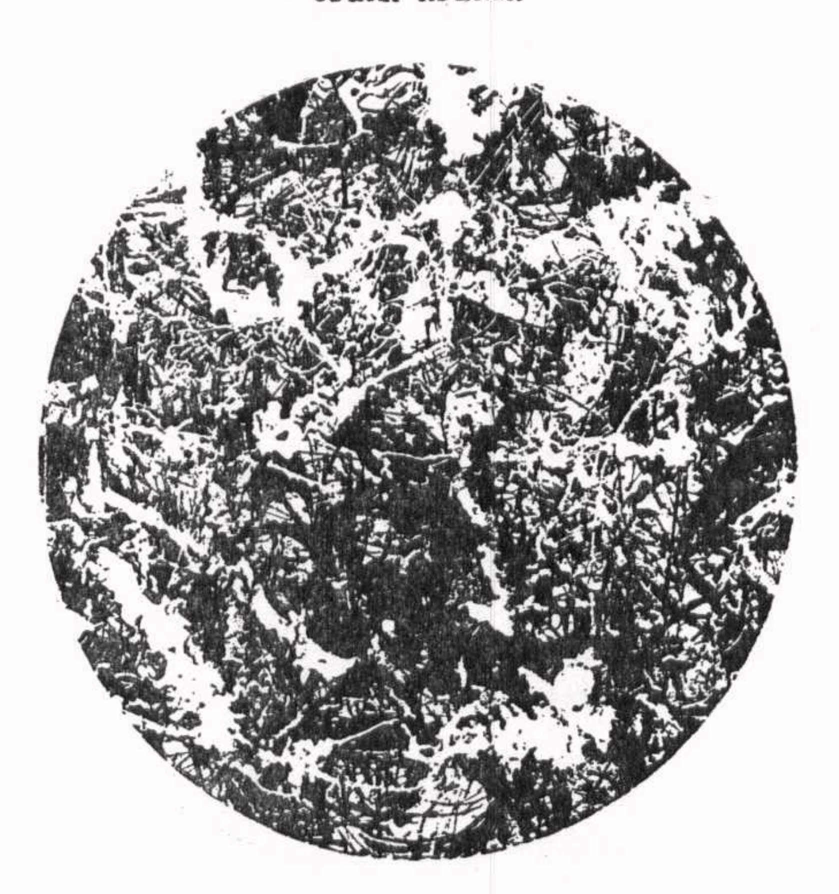
ولقد اكتشف بعض الباحثين وجود مادة مغناطيسية فى قاعدة جمجمة الحمام بين غشاء المخ والعظم تحتوى على كمية ضخمة نسبيا من أكسيد الحديد أو المغناطيس ، فكل حمامة تحتوى على مائة مليون مغناطيس صغير يسمح لها بالاعتماد على الجاذبية الأرضية فى تحركاتها واتجاهاتها •

ومن ناحية أخرى أجريت بعض التجارب لاثبات الدور الذى تقوم به ملكة الشم عند الطيور ، فقد أزيلت أعصاب الشم عند بعض الحمام ، وخدرت مادة المخاط الأنفى عند بعض آخر ، فتبين أن هذا الحمام الذى حرم من استعمال حاسة الشم يجد صعوبة قصوى فى العودة الى أبراجه •

وفى الختام ، يمكن أن نقول ان الطيور المهاجرة لا تستخدم وسيلة واحدة للاتجاه والطيران ، فالنوع الواحد من الطيور يستخدم عدة وسائل ، ويمزج بين الوسائل المختلفة تبعا للظروف والملابسات ، وكذلك فان الطيور التى تهاجر لمسافات طويلة أكثر كفاءة وأعلى مقدرة فى الاتجاه من التى تطير لمسافات قصيرة ، ويمكن أن نخلص من ذلك الى أن الطيور بصفة عامة تتمتع بحاسة اتجاه ما زالت مجهولة ولكنها معقدة ، ومن ناحية أخرى فان الشواهد البصرية ، والعلامات الأرضية ، ومواقع الشمس ، والنجوم ، تلعب دورا كبيرا فى هذا الصدد ، وهذا لا ينفى أن بعض أنواع الطيور تستطيع أن تحدد اتجاهها فى الظلام دون الاعتماد على شواهد بصرية ، ومن بين النظريات التى تفسر هذه الظاهرة نظرية الحساسية للمغناطيسية الأرضية ، التى ثبت الدليل عليها فى أكثر من مناسبة •

Umberto Eco

OPERA APERTA



**UMBERTO ECO**
**OPERA APERTA**
**Bompiani — 1982**

## كتاب : المؤلفات المفتوحة

## المؤلف : أمبرتو ايكو

من الأوفق أن نبدأ هنا بتحديد المصطلحات • فالمقصود بالمؤلفات أى عمل ابداعى : موسيقى أو شعرى أو أدبى أو فنى ••• الخ • والمقصود بصفة الانفتاح هى كون هذا العمل **منتهيا لكنه غير كامل ، فهو** « مفتوح » أو قابل لكل تفسير أو شرح أو اضافة من جانب المستقبل أو « المستهلك » •

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا كانت نواته الأولى بحثا بعنوان : ( مسألة المؤلفات المفتوحة ) قدمه المؤلف فى المؤتمر الدولى للفلسفة عام ١٩٧٨ م ثم أعاد صياغته بعد أن تعمق فى الموضوع وأضاف اليه جوانب أخرى بحيث أصبح على النحو الذى يتضمنه هذا الكتاب •

والفكرة الأساسية التى يعتمد عليها هذا المؤلف هى فكرة يجمع عليها معظم المشتغلين بالذوق الفنى والأدبى فى هذا العصر : فهم يرون أن العمل الفنى **رسالة غامضة** بصورة رئيسية ، وهو مجموعة من المعانى لشىء واحد • أو بتعبير علم اللغة الحديث عدة مدلولات لدال واحد • وهذه المعانى المتعددة لا تتضارب ولا تتعارض ، وانما **تتعايش** داخل العمل الواحد •

واذا كانت الموسيقى هى أم الفنون ، فلنبدأ بها ولنعرض منها بعض الأمثلة •

فى معرض الحديث عن احدى المصنفات الموسيقية بعنوان ( تبادلات ) أو ( متغيرات ) Scambi للموسيقى الفرنسى ( هنرى بوسور ) ، يؤكد الموسيقى أن المصنف ليس قطعة محددة ، بقدر ما هو مجال للاحتمالات المتعددة أو دعوة للانتقاء والاختيار • فهذا المصنف يتألف من ستة عشر جزءا ،

**كل جزء منها يمكن أن يقرن بجزأين آخرين** ، دون أن ينال ذلك من التتابع أو التواصل المنطقى للمصنف ككل •

والمثال الثانى ، يقدمه لنا ( لونتشيانو بيريو ) فى أحد مصنفاته بعنوان ( متتابعات بالناى ) • فالعازف يجد أمامه لحمة أو نسيجا موسيقيا تتوالى فيها الأصوات بترتيب واحد وشدة ثابتــة • الا أن **زمن كل نوتة موسيقية يخضع لتقدير العازف** ، داخل اطار زمنى عام محدد •

هذان المثالان المختاران من بين كثير من الأمثلة يؤكدان الفــارق الكبير بين مفهوم الموسيقى الحديث ، وذلك المفهوم القديم الذى جرى عليه العرف فى الماضى • فالمصنف الموسيقى ( الكلاسيكى ) أو التقليدى يتكون من مجموعة من الأصوات وضـــعها المؤلف بشكل **ثابت** ، وهو يترجمها الى رموز متعارف عليها ليقوم العازف بتنفيذها **حرفيا بقـــدر الامكان** وبالشكل الذى اختـــاره المؤلف نفسه • أما المصنفات الموسيقية الحديثة التى ذكرنا مثالين لها ، فهى على النقيض من ذلك ، **لا تمثل رســـائل نهائيـــة محددة ، أو أشكالا ثابتـــة** لا رجعة فيها •

فنحن لسنا بصدد مؤلفات ينبغى تقديمها وعرضها حسب نمط تركيبى أو بنـــوى محدد ، وانما نحن أمام مؤلفات مفتوحة يكملها العـــازف فى ذات الوقت الذى يقوم فيه بعزفها أو تأديتها •

ولا ينحصر مفهوم ( الانفتـــاح ) على مرحلة العزف أو الأداء • وانما يتطرق علماء الذوق والجمال الى الحديث أيضا عن الانفتاح لتوضيح ما يجرى كذلك حين الاستقبال أو الاستهلاك • أى على مســـتوى المتلقى للعمل الفنى أو المستمع فى مجـــال الموسيقى • فهم يفرقون بين العمـــل الفنى **التـــام** الذى ما على المتلقى له الا أن يقبله بالصورة التى وضعها وحددها المؤلف ، ويذوقه ويفهمه على النحو الذى أراده المؤلف ، وبين العمل الفنى **المفتـــوح** أو **الناقص** ، الذى ينفعل به كل متلق أو مستهلك ، بصورة شخصية تتفق مع ثقافته الشخصية ، وذوقه الشخصى ، ومعتقداته الشخصية التى توجه متعته

أو استمتاعه بهـذا العمل وجهـة شخصية ، تختلف من انسـان لانسان • والحقيقة أن العمل الفنى تزداد قيمته الجمالية بقدر ما تتعدد النظرات اليه ، وبقدر ما يثـير من مفاهيم ، وبقدر ما يوحى من تأثيرات • ومن ثم ، فان الاستمتاع بالعمل الفنى يتأتى حينما يضفى المتلقى عليـه بعـدا شخصيا ، أو تفسيرا جديدا ، أو مفهوما مبتكرا •

والحقيقة أن أهميـة العنصر الشخصى ، أو الذاتى فى الذوق الجمالى الذى يستلزم تأثيرا متبادلا بين الأعمال الفنية ، بصفتها معطيات موضوعية ، وبين الأشخاص الذين يتلقون هذه الأعمال — هذه الأهميـة لم تخف على القدماء • فهذا ( أفلاطون ) يسجل أن المصورين لا يصورون الأشخاص ، بالضبط ، وانما من خلال الزاوية التى سينظر منها اليهم • وكان المصورون القدماء يتصورون لوحاتهم منظورا اليها من نقطة معينة • ولكن الواقع أن مثل هذا التصور عند القدماء لا يؤيد نظرية الانفتاح فى العمل الفنى ، بل على العكس ، فتحديد النظرة أو زاوية النظر الى العمل يحد من حرية المتلقى ويحصره فى طريقة واحدة يتلقى بها هذا العمل ، وهى الطريقة **الوحيدة الصحيحة** التى اختارها له الفنان •

مثال آخر نجده فى العصور الوسطى التى شهدت نشوء نظرية التمثيل أو الرمز أو المجـاز ALLEGORISME والتى أصـبح بمقتضاها الانجيـل ( ومن بعده الشعر والفنون التشكيلية ) يمكن أن يفسر بأربع طرق : الحرفية ، والمجازية ، والأخلاقية ، ثم الصوفية • وبذلك أصبح العمل الفنى يتمتع بنوع من الانفتاح • وأصبح كل قارىء أو متلق أمام عدة مداخل يلج منها العمل • وأمام عدة مفاتيح يختار أفضلها فى رأيه • ولكن الانفتاح هنا أيضا محصور داخل عدد من الاحتمالات المحددة مسبقا ، وهى الطرائق الأربع ، بحيث ان تفسير المتلقى لا يخرج عنها ، وبالتالى يكون خاضعا لرقابة المؤلف •

والحقيقة أن مفهوم الانفتاح بمعناه الحديث جليا فى فن ( البـاروك ) فالمعروف أن الفن الباروكى هو نقيض الثبوت والوضوح والكمال ، وغير ذلك من الصفات التى تميز الفن فى عصر النهضة الكلاسيكى • فالتشكيل الباروكى

تشكيل حركى ( ديناميكى ) يهدف الى عدم التحديد ، وبالذات فى التـأثير ، وذلك عن طريق الامتلاءات ، والفراغات ، والضوء والظل ، والانحناءات ، والخطـوط المتكسرة ، والزوايا المتـداخلة المختلفة ، بما يوحى بالامتـداد والانطلاق فى الفضاء ... وبذلك لم يعد العمل الفنى ذلك العمل الذى نقف أمامه لنتأمل جماله الواضح المحدد ، وانما أصبح العمل الفنى سرا علينا أن نكتشف كنهه ومعناه ، أو عملا واجب الأداء ، أو مثيرا للخيال . وهذا ما خلص اليه النقد المعاصر . كل ما هناك أن علم الجمال صـاغ هذه الخلاصات فى قواعد وقوانين .

وكان لا بد من انتظار النصف الثـانى من القرن التاسع عشر وأواخر الرومانسية ، وكان لا بد من انتظار الرمزية ، لكى نرى نظرية **المؤلفات المفتوحة** واضحة جلية . ان الشاعر ( فيرلين ) فى ديوانه ( فن الشعر ) يضع النقاط على الحروف ، حينما يضـع **الموسيقى فوق كل شىء** فى الشعر ويدعو الى **الغموض**، الى **« مزيد من الغموض »** .

ويذهب ( ماللارميه ) الى أبعد من ذلك فى هذا الطريق حينما يقـول : « ان تسمية الشىء فى القصيدة تسلبها ثلاثة أرباع المتعـة ، التى تكمن فى السعادة التى نشعر بها ونحن نحرزه شيئا فشيئا » . اذن على الشاعر أن : « يوحى بما يريد ... فهذا هو الحلم » . على الشاعر أن يتجنب أى تفسير وحيد يفرض نفسه على القارىء :

« ان الفراغات البيضـاء فى الصفحة وثنـايا الطباعة وترتيب النص الشعرى كل ذلك يساهم فى خلق حالة من الغموض حول الكلمة ، واضـفاء الايحاءات المختلفة عليها » .

هذه المرة ، أصبح العمل الفنى مفتوحا عن عمد ، وعن قصـد ، لتلقى ردود أفعال القراء الحرة . وهو ما تحققه الرمزية . ولعل أعمـال ( كافكا ) هى أفضل مثال للعمل المفتوح . فالقضية ، والقصر ، والانتظار ، والادانة ، والمرض ، والمسخ ، والتعذيب ، كلها لا ينبغى أن نأخذها بمعناها الحرفى .

عند ( كافكا ) ، وعلى النقيض من مجازية القرون الوسطى ، فان المعـانى المستترة لا حصر لها ، ولا تحدها أية موسوعة لغـوية ، ولا تعتمد على أى نظام فى هذا العـالم • ان التفسـيرات الوجودية واللاهوتية والاكلينيكية والنفسية للرمزية التى تحفل بها مؤلفات ( كافكا ) لا تغطى كل منها الا جانبا واحدا من الاحتمالات الكثيرة التى تعرضها هذه المؤلفات • ان هذه المؤلفات لا تنضب ولا تنتهى ، وتظل مفتوحة لأنها **غامضـة ، لا تفتـأ** تثير النقاش **وتطرح الأسئلة** •

وجانب كبير من النقد الحديث يرى أن الأدب المعاصر يعتمد فى بنـائه على الرمزية — حتى ولو كان من الصعب الجزم بأن الكاتب أو الشاعر يعمد الى الرمزية أو الى الغموض • وقد حدا ذلك بأحدهم وهو ( تندال ) الى تحليل روائع الأدب المعاصر ومحاولة التـدليل ، نظريا وعمليـا ، على صحة مقولة الشاعر ( بول فاليرى ) الشهير التى يرجع فيها كل أدب عظيم الى الرمز ، ويؤكد على تعدد المفاهيم للمتن الواحد ، حينما قال : « ليس هنـاك معنى حقيقى للنص » • بل ان ( تندال ) ذهب الى حد القول بأن العمل الفنى أشبه بالآلة ، وكل منـا ، بما فى ذلك الكاتب نفســه ، يستطيع أن« **يستعملها** » كما يحلو له • وعلى ذلك ، وفى مذهب هذا النـوع من النقـاد ، فان العمل الأدبى « **معين لا ينضب من المعانى** » •

ان أدب الانجليزى ( جيمس جويس ) يقدم الدليل القاطع على ذلك : « فقوة ( أوليس ) بدلا من أن تتخذ وجهة محددة ، تنتشر فى مختلف الأبعاد بما فى ذلك البعـد الزمنى ، حول نقطة واحدة • ان عالم ( أوليس ) تحركه حياة معقدة لا تنضب • فهذه الرواية أشبه بالمدينة نعود اليها فنكتشف وجوها جديدة ، وطبائع جديدة ، ونقيم علاقات جديدة ••• » •

وهذا الناقـد ( ادمون ويلسون ) يتحدى أى ذاكرة انسانية تستطيع بعـد القـراءة الأولى ، أن تلم بأطراف ( أوليس ) : « وحينما نعـود الى قراءتها نستطيع أن نبـدأ القراءة من أى مكان ، وكأننا أمام مدينة كبيرة ، يمكننا أن ندخلها من أى جهة من جهاتها » ومصداق ذلك أن ( جويس ) نفسه أكد أنه كان يكتب أجزاء هـذا الكتاب المختلفة فى وقت واحد •

ومن الخطأ أن نعتقد أن معنى الانفتاح فى العمل الفنى ينحصر فى حدود الايحاءات الغامضة والاثارات العاطفية ، بل ان هذا الانفتاح يتجلى أيضا على مستوى القضايا والأفكار المادية •

فهذا مسرح ( بريخت ) يكتفى بأن يعرض لنا ، على شاكلة الملاحم ، ودون تدخل من جانب الكاتب ، الأحداث دون أن يقترح لها حلولا • وعلى المشاهد أن يخلص الى النتائج النقدية لما يعرض أمامه • ان مسرحيات ( بريخت ) تنتهى دائما بنهايات غامضة • وأوضح مثال على ذلك ( غاليليو ) غير أن الغموض هنا ليس « الغموض المرضى » أو غموض الجزع ، وانما هو غموض مادى ملموس ، هو غموض الوضع الاجتماعى ، أو حياة المجتمع بصفتها مواجهة للمشكلات والقضايا التى تدعونا الى البحث لها عن حلول • فالعمل الفنى هنا مفتوح على طريقة الجدل والحوار والمناقشة • ننتظر الحل ، نريده ، بل نرجوه ، ولكن الحل ينبغى أن يتفجر به وعى الجمهور • وبذلك يصبح **« الانفتاح »** الفنى أداة تربوية ثورية •

واذا كنا فى الأمثلة السابقة قد عرضنا أعمالا فنية يعتمد الانفتاح فيها على تعاون نظرى ، ذهنى ، من جانب المتلقى الذى عليه أن يضع تفسيرا لعمل فنى **« جاهز »** ، وله بنية معينة محددة ( حتى لو كانت هذه البنية تسمح بتفسيرات لا حصر لها ) ، فاننا فى حالات أخرى ( ومنها مصنف « تبادلات » للموسيقى الفرنسى بوسور الذى سبق أن قدمناه ) ، نجد أنفسنا مدعوين الى تعاون **شبه مادى** مع المؤلف ، فنحن نساهم فى صياغة العمل الفنى مع المؤلف • وهذا يقودنا الى الحديث عن نوعية أخرى من الاعمال الفنية يقوم المتلقى لها بالمشاركة فى بنيتها • ومثل هذه الأعمال يمكن أن نطلق عليها : الأعمال المتحركة •

ولعل من الأوفق أن نسوق بعض الأمثلة التشكيلية ، فهى بطبيعتها أنسب لمثل هذه الاعمال المتحركة ، وبالتالى أكثر وضوحا فى حالة التمثيل • فنحن نشاهد فى أيامنا هذه أشكالا فنية تملك قدرة حركية تتيح لها أن تعيد تشكيل نفسها أمام عيون المتفرجين •

وفى كلية العمارة بجامعة ( كاراكاس ) أوضح مثال على هذه الأعمال • فالكلية يطلقون عليها : **مدرسة الابداع اليومى** : والحقيقة أن القاعات فى هذه الكلية مزودة بأطر متحركة ، بحيث يستطيع الأساتذة والطلاب تكييف الظروف التى يعملون فيها مع موضوع العمارة أو التعمير الذى يقومون بدراسته ومناقشته • وبذلك لا يفتأون يغيرون ويبدلون فى بنية الكلية الداخلية •

وهناك مثل أقرب الى واقعنا ، يتمثل فى التصميمات الهندسية الحديثة التى تتيح انتاج العديد من الاعمال المتحركة كالكراسى والمصابيح التى يمكن تركيبها فى أشكال مختلفة ، وكذلك المكتبات وبعض قطع الأثاث الأخرى التى يمكن للانسان العصرى أن يقوم بتركيبها بالشكل الذى يناسب ذوقه ، والمكان الذى يعيش فيه ، والمساحات والفراغات المتاحة له ، وحسب حاجاته الخاصة •

أما فى مجال الأدب ، فان أوضح مثال على الاعمال المتحركة هو (الكتاب) لصاحبه الشاعر الفرنسى العظيم ( مالارميه ) • هذا العمل الكبير الذى كان من المفروض أن يمثل خلاصة انتاج الشاعر ، بل انجاز العالم أجمع فالعالم **لم يوجد الا لاخراج كتاب** على حد قول ( مالارميه ) نفسه • فعلى الرغم من أنه ظل يعمل فيه طول حياته ، الا أنه لم يكن له أن ينجزه • كل ما وصلنا منه مسودات • ومع أن الدوافع الميتافيزيقية أو الغيبية التى دفعت الشاعر الى الشروع فى هذا الكتاب ، قد لا نقتنع بها ، فان الذى يهمنا هنا هو البنية الحركية للكتاب ، تلك البنية التى كانت تسعى الى تحقيق مبدأ شعرى فريد ، مؤداه أن الكتاب الذى يستحق أن يحمل هذا الاسم **لا تكون له بداية ولا نهاية :**

**« الكتاب لا يبدأ ولا ينتهى ، كل ما هناك أنه يبدو كذلك »**

كانت الغاية أن يكون ( كتاب ) مالارميه صرحا مفتوحا متحركا ••• يتحقق له ، عن طريق الصرف والنحو وترتيب الطباعة ، عدد كبير من العناصر التى يمكن أن تتخذ أشكالا مختلفة ، حيث ترتبط بينها علاقات طليقة غير محددة ولا مقيدة •

وكان من المفروض ألا تتوالى صفحات ( الكتاب ) فى ترتيب محـــدد ، وانما تخضع لأنماط مختلفة حسب نظــام من الابدال أو التبديل • فيتألف الكتاب من سلسلة من الملازم المنفصلة ، بحيث يتم كتابة الصفحة الأولى والأخيرة من كل ملزمة على ورقة واحـــدة كبيرة مطوية نصفين ، يمثلان أول الملزمة وآخرها ، أما فى الداخل ، فعن طريق تحريك الأوراق وتبديلها يمكن الحصول على كل التنويعات الممكنة ، ولا تخلو احـــداها من معنى ، هـــذا بالاضافة الى أن بنيـــة الجمل والكلمات ، بما تتضمنه من قوة ايحاء ، وبما تستطيع أن تعقـــده مع غيرها من الجمل والكلمات من علاقات ايحائية ، تسمح بكل الابدالات • وهـــكذا ، « فبالرغم من الطباعة الثابتة ، يصبح الكتـــاب متحركا » • وبذلك ، كان هدف ( ماللارميه ) أن يخرج كتابا لا يفتـــأ يتغير ويتبـــدل ويتجـــدد بين يدى القارىء • ومع مثل هـــذه البنيـــة لا يمكن أن نتصور فقرة واحـــدة من هذا الكتاب يكون لها مفهوم واحـــد أو معنى واحد، بمنأى عن تأثيرات السابقات •


Gustaw Herling
Un monde à part
Préface de Jorge Semprun
Denoël

GUSTAW HERLING
UN MONDE A PART
Denoël, 1985

**كتـــاب : عـــالم على حـــدة**

**تاليف : غوستاف هيرلنغ**

**« بالنسبة لمئات الآلاف من أمثال ( غورتشيف ) فان البلشفية كانت هى الدين الفريد والوضع الوحيـــد الممكن فى هـــذا العـــالم ، ذلك أنهم قـــد أرضعوا هـــذا الدين منذ نعـــومة أظفارهم وطوال طفولتهم ومراهقتهم ... »**

تعود قصة هـذا الكتاب الى عا م١٩٤٠ م حينما حاول المؤلف وكان حينئذ ضمن قوات المقاومة الفرنسية أن يجتاز حدود احدى الولايات الروسية لينضم الى الجيش البولندى فى الأرض الفرنسية ، ولكن لم ينجح فى محاولته، وألقى القبض عليه وأرسل فيمن أرسل الى أحـــد معسكرات ( الشمال الكبير ) فقضى هناك سنتين ، وكان كتاب **« عالم على حـــدة »** هو محصلة هذه الفترة العصيبة ، وهو الشهادة الدامغة على ذلك الأسر وذلك السجن الذى كان على الكاتب أن يواجه خلاله الفزع الأكبر . أو على حـد قوله ( الرعب المطلق ) .

ففى هـذا الكتاب النادر يحاول « غوستاف هيرلنج » بأسلوب بسيط ، بعيدا عن الخطابة والمبالغات ، أن يروى لنا قصة الجوع والبرد والقسوة ، حيث يفقد الانسان كل معنى للكرامة ، وحيث تضـــيع القيم وتختفى المثـــل أمام ضرورة الحياة والاستمرار فيها . فى هذا الكتاب أو على حد تعبير الكاتب ( بيت الأموات ) نتعرف على عدة وجوه أو عدة أنماط من البشر : « البوب » أو الـــكاهن الروسى المسئول عن المعسكر ، مأمور الشرطة الذى حكم عليـــه بالاعدام بتهمة اطلاق النار على صور الزعيم (ستالين) ، والسجين (كوستيليف) الذى عمـــد الى احراق ذراعه لكى يعفى من العمل المميت .

ان ومضات النور الوحيدة فى هـذا العالم المظلم تتمثل فى المستشفى الذى يستطيع من يصل اليه أن يغتسل وينام على فراش ، دار الملتقى ، حيث يمكن للمساجين بعـد طول المعاناة والتعذيب أن يلتقوا بأحـد أفراد أسرتهم، وغالبا ما يكون ذلك من أجل الاتفاق على الانفصال أو الطلاق • ويوم الراحة الذى يحـل كل شهرين وما يحمل من سراب الحرية ، راحة مؤقتـة تزيد من الاحساس باليأس والقنوط •

ان الكاتب خلال صفحات هـذا الكتاب يرصـد ويحصى ويحـلل على شاكلة كبار الكتاب ، ثم يعرض لنا الحقيقة المرة ، الواقع المأسوى ، باختصار : يضعنا أمام صورة من صور الحضيض ، الذى تردى اليه الوضع الانسانى فى العصر الحديث ، صحيح أن المؤلف لم يكن هو الشاهد الوحيـد على فظائع ستالين وعصبته ، ولكنه بلاشك كان واحـدا من الأوائل الذين اطلعوا على هذا الوجه القبيح للعـالم •

ان مهمتنا ، أو بالأصح كما أصبحت فى أيدى الذين أرادوا تحويلهـا الى أداة للتعذيب ، هذه المهمة لا يمكن شرحها أفضل ولا أوضح من عرضها من خلال قصة ذلك الرجل الذى لقى حتفه فى شتاء ١٩٤١م ، من فرط العمـل فى احـدى فرق الحطابين ، وبأسلوب شرعى تماما يعـكس مدى القسـوة والوحشية فى لوائح المعسكرات الشيوعية •

بعـد وصولى الى المعسكر بشهر تقريبا ، وصل المعسكر قافلة جديدة تتألف من حوالى مائة سجين سياسى وعشرين من الخطرين على الأمن ، وقـد بقى هـؤلاء العشرون فى مدينـة ( بيرتسيفو Pertsevo ) أما السجنـاء السياسيون فقـد تم توزيعهم على عـدة أقسام فى معسـكر ( كارغوبول ) وذلك باستثنـاء سجين شاب ، متـين البنيـة ، يدعى ( غورتسيف Gortsev ) بقى فى ( بيرتسيفو) وتم الحاقه بالغابات •

ومن الغريب أن كل ما كان يقـع فى المعسكر من شغب وضوضاء كان بسبب ذلك الشاب الذى رفض أن يخضع للتقاليد المعمول بها بين السجناء •

كما رفض الافصاح عن ماضيه ولو بكلمة واحدة • هذا الموقف من جانبه كان كافيا ليثير ضـــده أحقاد الآخرين ، ذلك أن الاعتقاد السائد بين السجناء ، هو أن السجين الذى لا يطلع الآخرين على أسباب ادانته وسجنه ، هو أحـــد اثنين لا ثالث لهما : فاما أن يكون من المتعالين المتكبرين ، الذين يرون أنهم أرفـــع من أن يندمجوا مع بقية السجناء ، واما أن يكون جاسوسا أو مخبراء دسه المسئولون بين صفوفهم ، والحقيقة أن وجود جاسوس أو مخـــبر بين السجناء كان من الأمور الطبيعية ، غير أن ما أثار الأحقاد ضد ( غورتسيف ) بالدرجة الأولى كان سلوكه ، فكان تصرفه فى المعسكر يوحى بأنه جـــاء الى لسجن بمحض المصادفة ، وأنه يستحـــق بعض الامتيازات ، وأن هناك أملا كبيرا فى خروجه من المعسكر ، وكانت الشائعات تتردد بأن هذا الشاب كان ضابطا قبل أن يتم القبض عليه •

ومن الغريب أن ( غورتسيف ) كان ، وبلا وعى منه أو عن غباء ، يعمـــل كل ما يؤكد شكوكنا نحوه ، فحينما كنا نوقـــد بعض النار فى الغابة ونجلس حولها طلبا للراحة ، لم يكن ( غورتسيف ) يفتح فمه الا ليلقى خطبة قصيرة وعنيفـــة ضد « أعـــداء الشعب » المسجونين فى المعسكر ، ويدافع عن قـــرار الحزب والحكومة اللذين أحسنا صنعا اذ أودعا هؤلاء المذنبين غياهب السجن ليحولوا بينهم وبين ايذاء الشعب والاضرار بالمصالح العليـــا •

كان وجه الشؤم البغيض بعينيـــه الخبيثتين ، عينى الخادم الذليل ، والنـــدبة التى تظهر على خـــده الأيمن ، كان وجهه هذا يلوح لنا فى ضوء ابتسامة غريزية تنم عن الذلة والمسكنة وتعكس المهانة والعبودية ، فى كل مرة ينطق فيها بهذه العبارة السحرية « الحزب والحكومة » •

وذات يوم صرح بصورة خرقاء أن وجوده فى هذا الحجز عن طريق الخطأ ، وأنه لن يلبث أن يعود الى موقعه القـــديم « موقع المسئولية » •

حينئـــذ ، بدأ المساجين الآخرون يعاملونه بحقـــد دفين ، يحاولون اخفاءه يوما بعـــد يوم •

ولقـــد حاولت من جانبى عدة مرات أن أكسب ثقته ، ليس حبـــا فيـــه أو استلطافا له ، وانما بدافع الفضول ، وكنت أشكر الظروف التى أتاحت

لى أن أتحــدث الى رجل مسجون فى معسكر عمل ، ومع ذلك فهو يرى الأشياء بعينى شــيوعى طليق . الا أن ( غورتسيف ) كان يتجنبنى كمــا كان يتجنب الآخرين ، ويروغ منى كلما وجهت اليه ســؤالا ، حتى محاولات الســخرية منه والاستهزاء به من أجل اثارته كانت تضيع هباء ، ولكننى نجحت مــرة واحــدة فى استدراجه الى حديث طويل ، وكانت هذه المناقشة كافيــة لاقناعى أن من الخطأ أن نتصور أن الشبان الشيوعيين السوفييت ما هم الا عصــابة من المغامرين الذين يطيعون رؤساءهم ولكنهم على أتم الاســتعداد للانصراف عنهم فى أول فرصة تسمح لهم ، والسبب فى ذلك أنه بالنسبة لمئات الآلاف من أمثال ( غورتسيف ) ، فان البلشفية كانت هى الدين الفريد والوضع الوحيــد الممكن فى هــذا العالم ، ذلك أنهم قــد أرضعوا هــذا المذهب منذ نعــومة أظفارهم وطوال طفولتهم ومراهقتهم ، أما من هم أكبر سنا ، فلعلهم قــد اعتبروا انحرافهم الأيديولوجى هزيمة شخصية كبرى سلبت حياتهم كل معنى ، ولعلهم عانوا وتعذبوا لأن نصيبهم كان الخيانة والغدر ، ولعلهم قــد تحطموا نفسيا الى درجة يستحيل معها العلاج . ولكن على الرغم من ذلك كله فقــد ظلوا يحتفظون بعقليتهم النقــدية وبروحهم الانتقادية بحيث يستطيعون تقدير ما أصابهم وما يدور حولهم ، وذلك فى اللحظات التى تستنير فيها بصائرهم وتتضح فيها نظرتهم للأشياء .

أما فيما يتعلق بـ ( غورتسيف ) وأمثاله ، فان فقدهم للايمان بالشيوعية ، الايمان الوحيد الذى اصطبغت به حياتهم وتشكلت ، يكون أشبه بفقــدهم لحواسهم الخمس الأساسية التى تتيح لهم تحديد الواقع المحيط بهم وتقديره وتقويمه ، حتى السجن لا يمكن أن يجعلهم يحنثون بالأيمان التى قطعوها على أنفسهم ، لأنهم يعتبرون السجن كنــوع من العزل المؤقت بسبب ارتكابهم مخالفة للنسك الرهبانية أو الكهنوتية ، وهم ينتظرون بفارغ الصبر يــوم حريتهم بقلوب أكثر طاعة وخضوعا من ذى قبل .

ان فترة العزل والتأمل التى يمثلها جحيم السجن لا تغير شيئا من واقعهم أو حقيقتهم ، أو بالأحرى فهى دليل قاطع يثبت لهم أن الجحيم موجود فعلا ،

ولعلهم يحـــدثون أنفسهم بصوت خفيض مرددين : « اللعنة على من طردوا من الفردوس بسبب دعوتهم ضد النظام الأعلى » •

* * *

**« أيها الاخوان ، هـــذا هـــو قاضى التحقيق فى ســـجن خاركوف ، كان ينهال ضربا على الرجال حتى تتغير ملامحهم تماما فلا تستطيع أمهاتهم اللائى ولدتهم التعرف عليهم •• »**

وذات مساء أزيح الستار قليـــلا عن ماضى ( غورتسيف ) فقـــد تورط لسبب تافه فى شجار مع مجموعة من المساجين المنغـــوليين فى أحـــد أركان المعسكر ، انفجر على أثرها فى ثورة عارمة لم تصـــدر عنه قبل ذلك ، جـــذب أحدهم من ياقة ثوبه وراح يهزه فى عنف وغيظ معلنا وهو يضغط على أسنانه بكل ازدراء واحتقار : « فيما مضى كنت أسحق الدستة من المخلطين الآسيويين أمثالك كما تسحق الصراصير فى جحورها » ، فما كان من الآخر ، وكان يجلس القرفصاء فوق تخشيبة سفلى ، الا أن زمجر ببعض عبارات مكتومة بلغته الأم، ثم ما لبث تعبير وجهه أن تبـــدل بحيث صار من المستحيل أن نتعرف عليه • ومن فتحتى جفنيه الضيقتين ، كانت عيناه تطلقان بريقـــا باردا من الصلب ، واذ بشفته السفلى ترتعـــد فى عصبية تحت شاربه الدقيق المتدلى وتكشف عن صف من الأسنان البيضاء ، وعلى حين فجأة ، وفى حركة سريعة أشـــبه بالصاعقة ، تخلص من قبضة ( غورتسيف ) ، ومال عليه ، وبكل ما أوتى من قـــوة بصق فى وجهه ، وحاول ( غورتسيف ) أن ينقض على العجوز ، غـــير أن شابين منغوليين منعاه من ذلك ، اذ قفزا من فوق تخشيبة عليا وقبضـــا على ذراعيه قبضة من حديد ، وكانا أثناء الشجار يلاحظان ما يجرى دون أن يتحرك أحدهما من مكانه •

وهكذا فقـــد تبين أن ( غورتسيف ) كان قـــد أسهم فى اخماد التمـــرد الوطنى الكبير الذى ظهر فى وسط آسيا ، ومن المعروف أن مثل هذه المهمـــة توكل عادة لمن تثق فيهم السلطة ثقـــة كاملة ، أى الى الصفـــوة من الحزب والحكومة ، بعد ذلك الحادث الذى وقع فى السجن ذهب (غورتسيف) ليشكو

الأمر للفرقة الثالثة ، الا أنهم حتى لم يستدعوا الرجل العجوز الذى اعتدى عليه ليفسر ما وقـع منه ، ولعلهم بذلك أرادوا عقاب ( غورتسيف ) الذى عمل دون قصـد منـه على تأكيد حقيقة التمرد الشـهير الذى كان من المحظور التحـدث عنه داخل روسيا • أو ربما لأنه على الرغم من المظاهر الخارجية ، الا أنه لم يكن يتمتع بحماية أية شخصية قوية خارج المعسكر ، اذ لم تكن علاقاته القـديمة كافية لمساعدته فى هـذه المحنة ، وها هو ذا يجـد نفسه وحيـدا أعزل أمام الضربة الشرسة التى تتأهب للقضاء عليه ، على أية حال، لقـد اعتبر الرجل العجوز وعصابته من المغول فشله هـذا بمثابة ضـوء أخضر لهم ، ولم تكن العصابة تريد الا شيئا واحدا ، وهو ألا تتدخل الفرقة الثالثة فى هـذا الموضوع وأن تقذف أحـد رجالها طعاما الى الذئاب وأن تتركه لانتقام السجناء •

مع دخول أعياد الميلاد ، حدث أن قافلة أخرى من السجناء مرت فى طريقها الى معسكر (بتشورا) Petchora بمعسكر ( بيرتسيفو ، أى معسكرنا ) وذات مساء مر أحـد هؤلاء السجناء أمام تخشيبة (غورتسيف) ثم توقف فجأة وقـد شحب وجهه وصاح قائلا :

« أنت هنـا ؟ »

فرفـع (غورتسيف) رأسه ، وشحب بدوره ، ثم أشاح بوجهـه ناحية الجـدار • فما كان من السجين الجـديد الا أن اقترب منه فى هوادة مرددا سؤاله :

— هنا ؟ أنت هنا ؟

وعلى حين فجأة انقض السجين على رقبة ( غورتسيف ) وألقـاه على ظهره داخـل التخشيبة • وراح يضغط بكتفه الأيمن على صـدره ، ثم بدأ يرطم رأسه فى حنق وثورة فى ألواح التخشيبة وهو يصيح بأعلى عقيرته :

— وهكذا ، قبضوا عليك أنت أيضا ؟

قال وهو يضغط على كل كلمة ويدق رأس ( غورتسيف ) :

ــ قبضوا عليك أنت أيضـــا ، هيـــه ! كنت تحطم أصـــابعنا فى مزالج الأبواب ، وتدس الابر تحت أظافرنا ، وتصفعنا على وجوهنـــا وتركلنا بأقدامك فى بطوننا وصدورنا ، أليس كذلك ؟ ولكن أظافرى نبتت وسأخنقك بها ... ! .

ومع أن ( غورتسيف ) كان أكثر شبابا ، وفى الظاهر أكبر قوة من خصمه الا أنه كان يتصرف كانما فقـــد كل حيلة ، ولم يحاول أن يدافع عن نفسه ، ولم يتمكن من استعادة وعيـــه الا بعـــد لحظات . فوجه للآخر ضربة فى ركبته وسقط معـــه فوق الأرض ، ثم اعتمـــد على أقرب كرسى ونهض ، وأخـــذ يركض نحو مدخل المعسكر ، وما أن بلغ المدخل حتى اصطدم بجدار من السجناء الجـــدد الذين تركوا أماكنهم ليمنعوه من الهرب ، فدار نصف دائرة باحثا عن ثغرة ينفـــذ منهـــا ، الا أن العصابة كانت فى انتظاره ، وهى ترمقه بكل كراهية وحقـــد ، حينئذ توجه خصمه نحوه وهو يمسك بيديه قضيبا من الحـــديد ألقاه اليه زميل آخر من تخشيبة عليا ، وراحت الحلقة تستحكم من حول ( غورتسيف ) وفتح الرجل فمه لكى يصيح . ولكن فى هذه اللحظة بالذات فاجأه واحـــد من العصابة بضربة على أم رأسه بغطاء الدلو الخشبى، فسقط صاحبنا على الأرض وهو يقطر دما ، وحاول بما تبقى لديه من قـــوة أن ينهض على ركبتيـــه ، وراح يزعـــق بصوت رهيب : « أيهـــا الحراس ! سيقتلوننى ... سيقتلوننى ! » .

وخلال السكون المطبق الذى ســـاد على أثر ذلك ، زحف أحدهم الى خارج تخشيبته ، وتسلل الى باب المعسكر وأوصده ، عندئذ ألقى آخر بنطلونا من أعلى تخشيبته فسقط فوق ( غورتسيف ) وراحت ضربات القضيب الحديدى تنهال فوق رأسه كالمطر ، ثم تخلص من البنطلون ، وترنح كالمخمور متوجها ناحية العصابة ، فتلقته ضربة من قبضة أحدهم فارتد ككرة من المطاط وهو يتقيأ دما ، بينما راحت ساقاه تتأرجحان وتختفيان تحته ، وتقـــاذفته الأيدى

حتى طاح على الأرض فاقـد القوة وهو يحمى وجهه بذراعيه وبطنه بركبتيه بصورة تلقائية ، ومكث على هـذه الحال منكمشا على نفسه ، متقلصـا والدماء تنزف منـه أشبه بخرقة بالية مبللة . واقترب منـه بعض السجناء يداعبونه بأحذيتهم ، ولكنه لم يحرك ساكنا .

وتساءل الرجل الذى كشف أمره قائلا :

— هل مـات ؟

ثم أردف قائلا :

— أيهـا الاخوان ، هذا هو قاصى التحقيق فى سجن ( خاركون ) كان ينهال ضربا على الرجال حتى تتغير ملامحهم تماما ، فلا تستطيع أمهاتهم اللائى ولدنهم التعرف عليهم ، ياله من وغـد ! ياله من وغـد !

وتقـدم أحدهم حاملا دلوا من المـاء فصبه على رأس ( غورتسيف ) فتحرك القاضى القـديم وأطلق زفرة عميقة ثم عاد الى سابق وضعه ، وهنا سمع صوت نقيب الحطابين يقـول :

— انه على قيد الحياة ، ولكن لن يستمر طويلا .

* * *

**( ان الثورة قلبت الأوضاع رأسا على عقب : ففى المـاضى كانوا يلقون العبيد الى الأسود ، أما الآن ، فان الأسود هى التى تلقى الى العبيد ) .**

وفى صباح اليوم التالى ، غسل ( غورتسيف ) وجهه من قشور الدماء التى جفت عليه ، وذهب بكل صعوبة وعناء الى الوحدة الطبية حيث منح يوما راحة ، ثم ذهب أيضا ليشكو للفرقة الثالثة ، ولكنه عاد صفر اليدين . وبالنسبة لنـا ، صار واضحا أن السلطة أوكلت للسجناء أمر واحد من عملائها القدامى . لعبة

عجيبة ! تتم وفقا لقواعد اتفاق صـامت بين الضـحية والجلادين ، بدأت فى المعسكر •

ما ان كشـف ماضى ( غورتسيف ) حتى كلف بأقسى الأعمال فى عصـبة الحطابين ، وهى نشر أشجار الصنوبر بالمنشار الصغير ، فبالنسبة لرجل لم يتعود على العمل الجسدى الشاق ، وبالذات فى الغابات ، فان هذه المهمة تعنى الموت البطىء الأكيد ، اللهم الا اذا كان له الحق فى راحة يومية ، يشعل خلالها النار فى الأغصان المقطوعة ، غير أن ( غورتسيف ) لم يكن يعفى من العمل على الاطلاق ، فقد كان عليه أن ينشر احدى عشرة ساعة فى اليوم ، حتى انه كان فى أغلب الأحيان يسقط من الاعياء ليلتقط أنفاسه فى صعوبة أشبه بالغريق ، يبصق دما ، ويحاول أن يدلك جبينه المحموم بقطع الثلج ، وفى كل مرة كان يخور فيهـا ويلقى المنشار ، كان النقيب يقبل نحوه ويقول له بكل هدوء :

— الى العمل يا ( غورتسيف ) أو نجهز عليك فى القشلاق •

فيعود الى العمل ، وكان السجناء يشهدون احتضاره بكل متعة وسرور ، وكان بامكانهم أن يجهزوا عليه فى ليلة واحدة ، خاصة وهم يعلمون أنهم لن يتعرضوا لأى عقاب من السلطات العليا ، ولكنهم كانوا يريدون أن يطيلوا فترة هذا الاحتضار ، أن يجعلوه الى الأبد ، اذا كان بامكانهم ، لكى يتعذب ويعانى نفس الآلام التى جرّعها فى المـاضى آلاف الرجال •

حاول ( غورتسيف ) أن يقاوم ، مع أنه لابد وقد أدرك أن صراعه لا أمل من ورائه ، تماما كالمقاومة التى كان يجـدها فى المـاضى عنـد ضحاياه أثناء استجوابهم ، وذهب الى الطبيب للحصول على راحة أخرى • غير أن المشرف رفض أن يسجل اسمه فى قائمة المرضى ، ومرة أخرى رفض أن يذهب للعمل ، فأودع الحبس المنفرد دون طعام لمدة يومين ثم أعيد للعمل فى اليوم الثالث ، لقد فهم الدرس • وأصبح ( غورتسيف ) يزحف كل يوم منقادا لفريق العمل ، يتقدم تغطيه الأوساخ وهو فى حالة غيبوبة • كان دائما محموما يئن ويتوجع ، يبصق دما ، ويبكى كالطفل الرضيع أثناء الليل ، ويتوسل للعفو عنه خـلال

النهار • وفى أواخر شهر ينـاير فقد وعيه أثنـاء العمل ، فخشى السجناء أن يضطروا هذه المرة لحمله الى المستشفى • فاتفقوا فيما بينهم ومع حامل المياه الذى كان يحضر لهم حصتهم الاضافية من المـاء ، أن يحمله فوق زحافته فى آخر النهار بعد العمل ، فكان فريق العمل يعود فى المساء بطيئا الى المعسكر ، فى حين تتبعهم الزحافة على بعد عدة مئات من الأمتار تحمل جسد ( غورتسيف ) فاقد الوعى ، لكنه لم يصل الى حدود المعسكر ، ففى موقع الحراسة تبين أن الزحافة خالية ، وبسؤال حامل المـاء ، قال انه كان يجلس على كرسيه ، كرسى القيادة ، فى مقدمة الزحافة ، ولابد أن البرد الذى كان يتساقط كثيفا قد كتم صوت سقوط جسد ( غورتسيف ) حينما هوى من فوق الزحافة • وكان لابد من الانتظار حتى التاسـعة مساء ، أى حتى ينتهى فريق العمـل من تناول العشاء ، لكى يتم تشكيل حملة مزودة بمشعل كبير للبحث عن السجين المفقود ، وقبيل منتصف الليل ، شاهدنا من خلال نوافذ القشلاق نقطة ضوء تتراقص على طريق الغابة ، ولكن الزحافة بدلا من أن تعود مباشرة الى المعسكر تحولت الى طريق المدينة •

لقـد تم العثور على جثة ( غورتسيف ) فى كومة من البرد تغطى جدول ماء متجمد ، كان غائصا فيها لمسافة مترين ، فلعل ساقيه اللتين كانتا تتدليان من الزحافة قد ارتطمتا بسور الجسر الخشبى الموجود على الطريق • كانت الجثة جامدة تماما ، فنقلت مباشرة الى معرض الجثث المجهولة فى المدينة •

لقد ظل السجناء زمنا طويلا بعد موت المحقق ، يتلذذون بذكرى انتقامهم منه ، ولقد رويت ما حدث لأحد أصـدقائى فى طاقم الفنيين ، فأطلق ضحكة عالية ، وهو يقول :

— « عظيم » لقد أدركنا الآن أن الثورة قلبت الأوضاع القديمة رأسـا على عقب ، ففى المـاضى كانوا يلقون بالعبيد الى الأسود ، أما الآن ، فان الأسود هى التى أصبحت تلقى الى العبيد ! •

# JACQUES ABOUCHAR

# Dans la cage de l'ours

BALLAND

JACQUES ABOUCHAR

DANS LA CAGE DE L'OURS

Ballard, 1985

## فى قفـص الـدب

## تأليف : جـاك أبو شـعر

**« فرصة سـنحت للصحفى الفرنسى ليكشف النقـاب عن منطق هـذا النظام العميل ، منطق ( أوبو ) تلك الشخصية المسرحيـة المخرفـة التى أرادت أن تمـلك العـالم بالخـدعة والغبـاء »**

فى سبتمبر من العام المـاضى تمكن الصحفى الفرنسى « جاك أبو شعر » من الدخول الى الأراضى الأفغانية بطريقـة غير رسمية ، فوقع فى أيـدى احدى الفـرق السوفيتية التى ألقت القبض عليـه واعتبرته أسيرا ، وبعـد بضعة أيام تم تسليمه للسلطات الأفغانية ليكتشف الفظائع والأهوال التى تقع فى سجن ( سيدورات ) فى كابول : « صـنبور ماء واحد لكل خمسمائة سجين ، زنزانات ضيقة يتكدس فيهـا من عشرة الى اثنى عشر رجلا ، نظـام الغـذاء الذى يعافه الحيوان ... » .

هـذا العالم ، أو كما يصفه الكاتب « بقفص الدب » ، هو ما يقـدمه لنـا « جاك أبو شعر » بكل « حرارة وانسانية » : شيوخ وأطفال ، مجاهدون حقيقيون وعابرو سبيل دخلوا السجن بمحض المصادفة ومنطق الأقوى .

وحينما لا يكون « أبو شعر » بين السجناء ، فهو لا محالة فى مكتب ( حافظ ) ضابط الشرطة المكلف بالتحقيق معه ، وهنا أيضا فرصة تسنح للصحفى الفرنسى ليكشف النقاب عن منطق هذا النظام العميل ، منطق ( أوبو ) تلك الشخصية المسرحية المخرفة التى أرادت أن تملك العالم بالخدعة والغباء معا ، فكان لها ما أرادت حينا ، ثم كان مصيرها أن ألقيت فى غياهب السجون .

لقد اضطر « أبو شعر » الى أن يكرر لهم مائة مرة أنه ليس جاسوسا. حرب أعصاب حقيقية ، حرم فيها الكاتب من أى اتصال بالخارج ، وكما جرت العادة فى ظل نظم الحكم الجائرة ، عرض الكاتب فى مؤتمر صحفى ملفق بطريقة مخزية ، وكان الكاتب طوال فترة سجنه ومحاكمته لا يدرى شيئا عما قامت به حركة المعارضة العالمية التى تمكنت من اطلاق سراحه ... لقد منعوا عنه الخطابات التى وصلته من زوجته ، والطرود التى بعثت بها السفارة الفرنسية اليه ، فلم يتسلمها الا عندما استقل الطائرة عائدا الى وطنه .

* * *

**« كنت أتفرس الشعار الوطنى المثبت على الجدار أمامى لقد خيل الى أننى أرى شكلا مبسطا للمنبر ( وهو منصة الخطيب فى المساجد ) غريب ، بل ومفاجأة لم تكن فى الحسبان ، هذه الاشارة الى الاسلام بين أثاثات جمهورية ماركسية » •**

فى نهاية الاستجواب ، أبلغنى المحقق أننى سأقدم للمحاكمة ، وحتى ذلك الحين لم أكن أعلم شيئا ، على الأقل رسميا ، رغم وجود المترجم • كانت السيارة التى ستقلنا تقف فى الفناء ، لا شىء يميزها عن آية سيارة عادية ، جلست فى الخلف يحيط بى جنديان من الميليشيا فى زى مدنى مسلحين بالمسدسات ، أما ( حافظ ) ، ضابط التحقيق ، فقد جلس بين السائق وجندى آخر يحمل مدفعا رشاشا جعله بين ساقيه ، كانت السيارة ترسانة حربية حقيقية ، ولقد ضحكت بينى وبين نفسى حينما تذكرت خطة الهرب التى نصحنى بها « كاراتيكا » ، وتتلخص فى أن أندفع من السيارة الى داخل السفارة الفرنسية ، آه ! مع وجود هذه الكتيبة من الرجال المدججين بالسلاح ، كنت لا محالة سأتحول الى « كفتة » حتى قبل أن أغلق باب السيارة •

مرت السيارة بحاجز عسكرى ودخلت قاعة ضيقة ، ثم توقفت أمام مبنى بادى القدم ، كان أمام المبنى بعض الجنود وبعض المدنيين فى الانتظار ، واقتادونى الى مبنى به رجلان غافيان فوق مقعدين لعلهما شاهدان ، تم استدعاؤهما للجلسة ، لأننى شاهدت بابا يفتح ، ولمحت من خلاله جمهورا من الناس يجلس على صفوف من المقاعد الطويلة كما هى الحال فى قاعات المحاكم ، وسرعان ما تم تفتيشى فى الحال ، ولم أكن أحمل أى شىء فى جيوبى •

عاد ( حافظ ) ، وكان قد اختفى عند وصولى ، وأشار الى بأننا سننصرف ، وعدنا الى السيارة ، ونظر ( حافظ ) الى ساعته وهو يقول شيئا

للسائق ولعله كان يستعجله ، وعدنا الى ( ســيدورات ) ونزل الضابط وحــده الى مقر الحراسة واتصل بالهاتف .

رحلة أخرى ، هــذه المرة فى الاتجاه المضاد ، كنا نسير بسرعة ، فالشوارع خالية ، والمرور قليل ، كل ما هناك أن الذين يصاحبوننى قد أخطأوا الجهة التى كان من المفروض أن يصحبونى اليها ، فالمحكمة العسكرية لا تقع فى مبنى المحاكم ، ولكن فى هــذا المبنى الضخم الحــديث الذى وقفت أمامه السيارة الآن ، وطلب من الميليشيا والجندى أن يودعوا أسلحتهم فى موقع الحراســة قبل دخولهم .

كان الدهــليز فى حجم قاعة الألعــاب الرياضية الحديثة ، به فتحات زجاجية كبيرة ، وكانت بعض الجماعات تنتظرنا ، وفى أحد الأركان ، شاهدت ثلاثة صحفيين سوفييت كانوا قد حضروا المؤتمر الصحفى الذى تم عرضى فيه .

وبقى معى ضابط وجنديان ، وحاولوا ابعادى عن فضول الموجودين ، فأجلسونى على كرسى خلف عامود ضخم ، وبذلك لم أعد أرى شيئا مما يجرى فى القاعة الكبرى ، كل ما هناك أننى كنت أسمع ضوضــاء السيارات التى تتوقف وأبوابها تصفق .

وتقــدم منى شابان ، فتبينت أنهما : المترجم المكلف بالقيام بالترجمة الفرنسية للمحاكمة ومعــه زميله الذى رمقنى وهو يقول :

ــ « كنت المترجم فى قضية الدكتور فيليب أوغويار » .

كانت هناك بعض الشكليات التى ينبغى استيفاؤها : مثلا كان يجب أن أملأ استمارة بيان حالتى ، مع أننى كنت أتصور أن حياتى أصبحت واضحــة تماما للافغان بعــد جلســات الاستجواب العــديدة التى مررت بها ، كذلك قمت بتحرير طلب التماس بالعفو ، وهو خاص ( بالبريزيد يوم ) أو رئاسة المجلس الأعلى للثورة وهو أعلى سلطة قضائية فى الحزب الشيوعى الأفغانى .

وسلمنى الرئيس الأوراق العشر المخطوطة التى تشتمل على عناصر الدفاع عنى ، كل شىء كما هو ، لم تتغير ولم تحذف أية فقرة •

وأوصانى المترجمان توصية أخيرة : ينبغى ألا أتحدث بسرعة كما ينبغى أن أتوقف قليلا بعد كل جملتين أو ثلاث جمل حتى يتمكن القضاة من متابعة الترجمة فى يسر وسهولة •

وأخيرا أعطى الرئيس الاشارة ، فدخلنا قاعة الجلسة ، فوجدتها غارقة فى شبه الظلام بسبب استعمال الأنوار المحجوبة ، وخيل لى أننى فى دار للخيالة حيث الكراسى الاضافية يشغلها جمهور غفير •

فى مكان القضاة ، كانت توجد ثلاثة كراسى موسدة مبطنة بالكامل بالمخمل الأخضر الشاحب •

كنت فى مواجهة المحكمة خلف قضيب فى شكل نصف دائرة ، يعلوه مكبر للصوت ، وكان المترجمان يجلسان على بعد ثلاثة أمتار الى يمينى ، وفى أقصى اليسار ، فى الجهة المقابلة ، فوق منصة صغيرة ، كان يوجد مقعد للمدعى العام •

وعمدت عدة مرات للالتفات محاولا التعرف بين جمهور الحاضرين على بعض الوجوه التى أعرفها ولم أجد أحدا ، لسبب بسيط ، وهو أننى لا أعرف أحدا فى ( كابول ) •

كان الضوء ضعيفا للغاية بحيث لم أتمكن من رؤية ( حافظ ) ولا الرئيس • وبدأ بعض المصورين عملهم • وكانوا أقل عددا ممن كانوا فى المؤتمر الصحفى •

كذلك كانت هناك بعض آلات التصوير ، وبعد قليل أضىء كشاف بهر بصرى : فطلبت من حامله أن يخفف من حدة ضوئه ، فلم يستطع لأسباب فنية « وقد شرح لى أحد المترجمين أن هذا الكشاف سيظل مضيئا طوال الجلسة » فهناك آلة تصوير تليفزيونية ينبغى أن تصور وقائع الجلسة كاملة ،

وأخيرا ، دخل المدعى العام قاعة المحكمة ، وتحت ابطه ملف الاتهام . والحقيقة أنه ألقى الرعب فى قلبى بشكل عام ، كان رجلا نحيلا ضئيل الجسم يتحرك كالانسان الآلى ، وكان وجهه يعبر عن القسوة ، بالاضافة الى أن تعبير نظرته كان غامضا بسبب عدسات نظارته السميكة ، فقد كان قصير النظر .

وأعلن الحاجب عن وصول هيئة المحكمة ، فبرز القضاة الثلاثة وعلى رأسهم الرئيس ، وأخذوا مقاعدهم على الكراسى الموسدة ، ثم أعلن الرئيس افتتاح الجلسة ، وقبل أن يعطى الكلمة للمدعى العام ، تأكد أننى على علم بالتهمة الموجهة الى .

ـ هل تريد ترجمة لنص الاتهام ؟

ـ كلا ... !

حينئذ ، نهض المدعى العام وبدأ يتكلم ، ولكى أكون قريبا من الحقيقة ينبغى أن أقول انه ( قفز ) من مكانه ، كان يقبض على أوراقه بكلتا يديه ويقرأ ووجهه ملتصق فعلا بالورقة ، وكان يرفع صوته ، بل كان يصيح ويطيح برأسه الى الوراء .

ولم يبد على الرئيس ومساعديه أى انفعال للسيل الكلامى الذى يصدر عن المدعى العام . وكانا يسجلان بعض الملاحظات ، والحقيقة أننى وجدت فى هيئة الرئيس ما طمأننى ، وقد سألنى فى هدوء دون أدنى أثر لحقد أو كراهية ، وكان أحد المساعدين واضح الصغر بالنسبة للآخرين ، يرتدى حلة جميلة ، وكان تصرفه وحركاته تدل تماما على أنه مناصر للنظام ، ولعله تخرج فى احدى الجامعات الأوربية : الفرنسية أو الانجليزية .

وعلى النقيض من المدعى العام ، فقد أوحى الى هذا القاضى الشاب ببعض الطمأنينة ، أما القاضى الثانى فقد كان عجوزا تقريبا ، كان مثالا حيا

للموظف البيروقراطى العتيق ، وكان من المستحيل على المرء أن يستشف ما اذا كان يتعاطف معى أو ضدى •

كان المدعى يقطع ادعاءه من حين لآخر ليشرب قليلا من المـاء ، فقـد حمل أوتاره الصوتية فوق ما تستطيع ، وكان كلما انتهى من قراءة صفحـة ترك الورقة تسقط فوق المنضدة دون أن يحول وجهه عن النص التالى •

كنت أستمع اليه واقفا ، فى هيئة انتباه تام ، مع أننى لم أكن أفهم كلمة واحـدة ، وكان تفكيرى بعيـدا ، وأنا أنظر الى سجـادة كبيرة من النوع الصناعى من الانتاج الحديث لبخارى ، وفى ذلك اهانة لهذا البلد الذى يعتبر صناع السجاد فيه من أمهر صناع العالم ، وينسجون أجمل أنواع السجاد •

كنت أتفرس الشعار الوطنى المثبت على الجدار الوطنى ، فـوق كرسى الرئيس ، يمثل الشمس الخالدة محاطة بسنابل القمح ، وعجلة مسننة وكتابا مفتوحا ، وهو ما يمثل على الأرجح عالم العمل والمعرفة ، بل لقد خيل الى أننى أرى شكلا مبسطا للمنبر ( وهو منصة الخطيب فى المساجد ) غريب ، بل ومفاجأة لم تكن فى الحسبان ، هذه الاشارة الى الاسلام بين أثاثات جمهورية ماركسية ، ولكن أظهر شىء فى اللوحة كان النجم الأحمر الشـهير الذى يتوسط الشعار •

**( اتهمنى القاضى بالانضمام الى صفوف الحثالة الاسلامية الاستعمارية ، على حد زعمه ) •**

خفت حدة صياح المدعى العام قليلا ، ووصل الى نهاية الادعاء ثم حيا هيئة المحكمة بكل احترام وجلس ، وانشغل بترتيب أوراقه المبعثرة التى كانت تغطى المنضـدة •

وبدأ الرئيس ، بأسلوب رقيق أبوى ، دون أن يخرج عن هدوئه ، يخبرنى بنتائج اتهامات المدعى العـام • فهو يطالب بتنفيذ عقوبة الاعـدام ، ولم يقدم تفصيلا لاتهامه ، هذا الرجل الآلى الأشبه بالقراقوز •

تخيلت رأسى تسقط فى سلة المشنقة ، فشعرت بالبرد يسرى فى أوصالى وتعلقت ، بل تشبثت بكل قواى ، بوعد رئيس المحكمة لى فى أول ليلة وصلت فيها الى السجن ، حيث قال لى :

— حتى فى حالة الحكم عليك بالاعدام ، فلن ينفذ فيك الحكم بسبب أبنائك ، ففى أفغانستان لا يعدمون رب الأسرة .

حينئذ شعرت أن أولادى لم يقدموا لى فى حياتى هدية أثمن من ذلك .

كانت الجرائم التى استوجبت اصدار هذا الحكم الفظيع باعدامى أربع : اجتياز الحدود بصورة غير شرعية ، والتعاون مع ارهابيين مسلحين ، وحمل رسالة تثبت التحريض ضد القوات الأفغانية والسوفيتية ، والمسئولية المباشرة فيما لحق بثلاثة من الجنود الأفغان من اصابات .

وأحالنى الرئيس الى بند فى ميثاق الأمم المتحدة ، يقضى بتطبيق أقصى العقوبات فى حالة الاعتداء على حدود احدى الدول الأعضاء ، يا له من رجل طيب ! ذلك الرئيس ، كان يريد منى اذن قبل أن أستقل الطائرة الى كراتشى أن أنكب على ميثاق الأمم المتحدة لأقرأه وأتدارسه ، ثم وجه لى سؤالا حول اعلان رسمى للحكومة الأفغانية يعود الى ربيع عام ١٩٨٤ فهل لدى علم بذلك ؟ لقد اعترفت بجهلى بالموضوع ، فقرأ على الاعلان المذكور وهو بخصوص تحذير رسمى الى جميع من يفكرون فى التسلل خفية الى الأراضى الأفغانية .

ولعل الرئيس الطيب كان يتصور أن التحذيرات التى تصدرها حكومته تكون مادة للنقاش والدراسة والتحليل فى قاعات التحرير فى الصحف الغربية .

وأعطيت الكلمة للدفاع لأى ملاحظات وردت فى نص الاتهام ونظرت فى أوراقى وانبريت فى عرض ما توهمته دفاعا ، فأشرت الى مافى التحقيق من ثغرات ، ذاكرا موضوع الجنود الثلاثة الجرحى ، فلماذا لم يستدعوا للشهادة ؟

الحقيقة أنه ليس لهم وجود ، ما دام المظليون السوفييت هـم الذين ألقـوا القبض على ، لقد جعلت أتكلم كما اتفق ، وبأى ثمن ٠

كذلك أشرت الى موضوع الذين زعم الادعاء أنهم ماتوا فى معيتى ، ففى أثناء التحقيقات بدأ الكلام عن خمسة من القتلى ، ثم أسدل ستار الصمت على الموضوع ، ولم يعد أحد يتحدث عنهم ، واليوم يذكر الادعاء أنهم كانوا اثنين ، وأنهما لقيا حتفهما فى باكستان ٠

وقاطعنى الرئيس ليستشير مساعديه ٠ ثم تبادل بعض العبـارات مع المدعى العام ، وبدا عليهم جميعا الحرج والارتباك ، ولاح لى أن الرئيس كان يسأل : عن أى قتلى تتحدثون ؟

كان الأمر أشبه بنعبة الاستخفاء ، فالجثتان اللتان ظهـرتا فى محضر الاتهام الأولى اختفتا فى النسخة النهائية ٠

ان قصة الجثتين ليس لها أساس من الصحة ، وحينمـا حدثنى عنهـا الرئيس فى مكتبه اعترضت ، فواجهنى بتحقيق اضافى مزعوم « مستفيض » لكى يبرر ظهور الجثتين المختفيتين ٠

وها هما تبعثان الى الأبد ( جاء التعبـير باللاتينية ) من جـديد ، لحسن الحظ ، ولكن يا لها من عصابة دجالين سواء الرئيس ومساعديه ، أم المـدعى العـام ، ان ضبطهم متلبسين بالكذب يوجب مقاضاتهم بسـبب ما ألحقـوه بمهنـة القضـاء من اهانة ٠

ولكن الرئيس لم يشعر بأية اهانة حيال هذه الحادثة ، وراح مسـاعداه يوجهان الى السؤال تلو السؤال ، كل فى دوره ، وكان الشـاب يكتب وأنا أتكلم دون أن ينتظر الترجمة ٠ كان يسخر من حججى ويهزأ بأدلتى ويستشهد بالجمهور من فوق رأسى ، ويصفنى للحاضرين باعتبـارى شريكا للارهـابيين ويعلن تشككه فى عملى بوصفى محررا صحفيا ٠

وعلى حين غرة سألني قائلا :

— ماذا كنت تفعل فى ايران عام ١٩٨٣ م ؟

— تحقيقا صحفيا للتلفاز الفرنسى ٠

فضحك دون أى تحفظ يليق بمكانته وهيبة المكان ٠

— تحقيق صحفى للتلفاز الفرنسى فى ايران ، يا لها من دعابة !

فى الوقت الذى تبيع فيه فرنسا السلاح للعراق ، ويوجه اليها الاتهام يوميا عبر اذاعة طهران باعتبارها قوة من قوى الشيطان ، وأنها تؤوى فى أراضيها خصوم نظام الخومينى المعروفين : من أمثال الرئيس السابق ( بنى صدر ) و ( باختيارى ) رئيس الوزراء السابق للشاه ، و ( راجيفى ) زعيم مجاهدى خلق ٠ كلا ، ان وجودى فى طهران لا يمكن تفسيره الا من خلال علاقات شخصية وقوية بآيات الله ٠

صحيح أن القاضى لم يتهمنى صراحة بتهريب السلاح ، غير أن الاشارة الى ذلك كانت واضحة ، ومن العسير أن يدافع الانسان عن نفسه ضد اتهامات مستترة وأمام محكمة مشبعة بالكراهية والبغض ٠

وحاول القاضى أن يتمادى فى اتهاماته ويدعم موقفه ، فأضاف أن من الغريب أن يعثر لى على أثر منذ سنوات طويلة ، فى كل مكان تندلع فيه الصراعات ، وذكر أمثلة كثيرة : لبنان ، وفيتنام ، واثيوبيا ، وتشاد ، وايران ، والعراق ، وبولندا ، واليوم أفغانستان ، وتعجب لأننى لم أطلب تأشيرة لدخول ( كابول ) مفضلا التعاون مع ما أسماه « صفوف الحثالة الاسلامية الاستعمارية » حتى تفسيراتى حول تحقيقاتى الصحفية فى شيلى والأرجنتين ركلت بالأقدام ٠ تحقيق صحفى حول المعارضة اليسارية السرية فى شيلى ؟ واستطرد القاضى : ان الذئاب لا يأكل بعضها بعضا ، وبمعنى أوضح فأنا والذئب ( بينوشيه ) Pinochet ننتمى الى فصيلة واحدة ، فصيلة الوحوش

الاستعمارية ، والملاحظة نفسها فيمـا يتعـلق بالدكتـاتوريين السـابقين فى بوينس أيرس •

كنت أنتظر شيئا من الطمأنينة من جانب القضـاة ، ولكن للأسف خاب ظنى ، كانت عبارات القاضى لا تقل فتكا عن مطالب المدعى العام •

ولعل رئيس المحكمة شعر أن المحاكمة حققت الغرض منها ، فأعطـانى الكلمة للدفاع الأخير ، ولقد عجبت كيف أن فى قضية على هـذه الدرجة من الأهمية ويتقرر فيها مصير حياتى ، لم يسمحوا لى بالاستعانة بأحـد المحامين للدفاع عنى • انهم يطالبون برأسى طبقا لقانون أجهل حتى أول بند فيه ، كذلك عجبت لأنهم لم يستدعوا أحدا من الشهود ، والأدهى من ذلك كله ، وقد أعلنت ذلك ، أن تحقيقا دام ثلاثين يوما واستغرق عشرات الساعات من الاستجواب ومئات المحاضر المحررة والموقع عليها ، كل ذلك ينتهى بجلسة محاكمة يتيمة لم تستغرق أكثر من ساعتين •

بعد ذلك وصلت الى مربط الفرس ، حينما اعترضت على اتهامى بالتآمر مع المعارضة الذى وجهه الى المدعى العام ، لقد وصفت نفسى بأننى مراقب ، شاهد لا متآمر ! وليس أيضا جاسوسا أو مهربا للسلاح ، رفضت كل هـذه الاتهامات ، وتحديت المدعى العام والقاضى بتقـديم أى دليل على صـحة اتهاماتهما ، وأوضحت للجميع أنهم بصفتهم رجال قانون ، وعـدالة ، ما كان ينبغى أن يملأوا ملفا فى قضية من واقع مزاعم ، مجرد مزاعم ، خصـوصا اذا كان الأمر يتعلق بمعايير أيديولوجية ذات صفة شخصية محض •

وفى الختام ، أكدت على أن تحقيقى الصحفى فى أفغانسـتان لم يكن الدافع اليه لا الكراهية ولا النيل من نظام الحكم فى كابول •

واستشار الرئيس مساعديه ثم أعلن رفع الجلسة لمدة عشرين دقيقة ، الأمر الذى رأيت أنه يبشر بالخير •

وانسحبت هيئة المحكمة وسمح لى بالجلوس ، وأقبـل المدعى العـام نحوى • والغريب أننى وجدت فيـه شخصا مختلفا تماما عن ذلك القراقوز المندفع الذى كان على منصة الادعاء • بل لقـد لمست فى وجهـه البشـاشة والجاذبيـة ، قدم لى سيجارة وربت كتفى ، ولم أسـتطع أن أقنـع نفسى بأن هذا الشخص طالب برأسى أربع مرات •

كنـا أشبه بالمشاهدين فى قاعة مسرح ، وخرج الحاضرون يدخنـون فى الدهليز ، أما المصورون فلم يتركونى لحظة ، صورونى واقفـا وجالسـا ، ومستمعا ، وقارئا ، ومدخنا ، ومتحدثا مع المدعى العـام ، أرادونى فى كـل الأوضاع الممكنة ، وشعرت بالانهيار ، شعرت أننى وحيد فى أيدى التسـلط والتعسف ، ولم أفهم شيئا من هذه العدالة الأفغانية ، اللهم الا أنها تريد أن تسـحقنى سـحقا •

وعاد الجميع الى أماكنهم ، وبدأ الصمت يخيم شيئا فشـيئا ، وظهـر الحاجب وأعلن عن وصول هيئة المحكمة ، فنهضت وشعرت بالبرد ، ووجدتنى أرسـم عـلامة الصـليب •

وانبرى الرئيس وهو واقف يقرأ الحكم بلهجة صارمة ، ووجدتنى أمعن النظر فى خطوط رباط عنقـه الصفراء ، كانت عباراته تصـلنى مخففـة ، بل تكاد تكون مكتومة ، والحقيقة أننى لم أكن أعير السمع ، فقد كانت الخطوط وحركات الشـفاه تسترعى انتباهى ، وسمعت بعض أجزاء من جمـل من فم المتـرجم :

— بناء على نشاطاته الاجرامية ••• خونة أهداف الثورة •••

كانت البداية قاسية ، وهذا ما كنت أخشاه بالذات •

وشرع الرئيس يقرأ ورقته الثانية ، واتخذ الحديث وجهة أخرى ، وبدأ يلين ، والألفاظ تصبح أقل حدة وخشونة ، وفجأة لاح انفراج حينما قال :

ـــ ان العلاقات التقليدية بين الشعبين الأفغانى والفرنسى ...

الحمد لله ! من المؤكد أن الحكم لن يتجاوز عشرين عاما .

وعدت أتطلع الى الخطوط الصفراء ، والرئيس يتابع قراءته ، وبدا لى كأنما يمــوء كالقط ، وتركز انتباهى على الترجمة :

ـــ ان محكمة مجلس الثورة تقضى بالسجن ثمانية عشر عاما ... ! .

ومصادرة جميع أدوات التصوير .

كان ( حافظ ) موجودا ، وكدت أن أعانقه . ومن خلفى راحت الأيــدى تصفق تحية للحكم ، وأنا أيضا ، شعرت بالرغبة فى التصفيق ، ولملمت أوراقى كمــا يفعل الملقن فى المسرح بعد آخر عبــارة ، وزادت أضواء الكشافات ، وتضاعفت لقطات آلات التصوير بينما كنت أتوجه الى الخارج .

ووجه الى ضابط أفغانى سؤالا فلم أملك نفسى من الضحك ... وطلبت منه أن يكرر ما قال . فعلا ، هو ذاك :

ـــ صحفى سوفيتى يود عمل مقابلة صحفية فورا معــك ، ليسجل أول انطباع ، رد الفعل الأول ...

صحيح ! الذين خجلوا ماتوا ! انهم لا يستحون .

فقلت صائحا :

ـــ أخبر ذلك الوغــد بأن يعود بعد ثمانية عشر عاما ، حينما أخرج من السجن ، ليجرى معى مقابلته الصحفية ... ! .

PETITE BIBLIOTHÈQUE PAYOT

PIERRE PARAF

# LES GRANDES CONTESTATIONS DE L'HISTOIRE



**PIERRE PARAF**
LES GRANDES CONTESTATIONS DE L'HISTOIRE
**PAYOT, 1983**

## المعارضـــات الكبـــرى فى التـــاريخ

## جذورها ومظـــاهرها

**تأليف : بيير باراف**

الخضوع والتمرد وجهان لعملة واحدة هى طبيعة الانســان فى مواجهــة المصير • فالانسان يتعرض لقوى الطبيعة التى تهاجمه من كل مــكان ، وقوى المجتمع التى تسيطر عليه بالسلاح ، وبالمال ، ويتعرض للقوى ( الميتافيزيقية ) أو الغيبية التى تتوعده بالعقاب ، وكذلك فالانسان تتناهشه قواه الشــيطانية ونزعاته الشريرة التى توجه غرائزه الرئيسية نحو العنف والقسوة • وهو حيال كل هذه القوى ، لا يملك الا الخضوع والطاعة •

ولكن منذ أن خرج الانسان من ظلماته الأولى ، منذ أن جرؤ على رفــع بصره والتطلع الى ما حول الكهف ، بدأ الخضوع يقترن بالعنف والتمرد •

ولعل الطبيعة العدوانية الكامنة فى الانسان وادراكه لقوته الذاتية همــا اللذان أخرجاه من الطاعة الى التمرد ، ومن الخضوع الى العنف •

فبدأ يرفض القاعدة أو القانون : قانون الأسرة ، قانون العشيرة ، قانون القبيلة ، قانون الرئيس المدنى أو الرئيس العسكرى ، بدأ يرفض النظام الذى فرضه المربى ، وسنه رجل الدين • وراح يعترض على النظام العــام ، على سيد القبيلة الذى أصبح سيد الدولة •

وخلال الأحقاب الأولى من التاريخ التى استغرقت ملايين السنين ، كانت الطاعة هى السمة الغالبة على البشر ، وكان الخضوع هو الصفة الظــاهرة عند

الانسان • أما مظاهر التمرد والعنف من جانبه ، فمع أن التاريخ القديم لم يخل منها ، الا أنها كانت عابرة ، ولم تكن لها نتائج تذكر ، اللهم الا استبدال رئيس أو زعيم جديد برئيس أو زعيم سابق ، مع بعض التنازلات التى لا تؤثر فى بنية المجتمع الأساسية •

ولكن التمرد كان يعتمل فى داخل الانسان ، والعنف كان يتحرك تحت السطح • وتسلل التمرد والعنف الى الفلسفات ، وتسربا الى الأديان ، وذهبا الى أبعد من الانتفاضات الظاهرة والثورات المعلنة •

وغنى عن البيان أن العصر الذى نعيش فيه غير كثيرا من الأوضاع ، وحول طريق الانسان الحديث الى وجهة أخرى •

ان تمرد الشباب أصبح سمة للعصر على الصعيد العالمى فى السنوات الأخيرة • هذا التمرد الذى بلغ ذروته فى انتفاضة مايو ١٩٦٨ فى فرنسا ، قد أكسب كلمة التمرد وأضفى على مضمونها أبعادا وأصداء لم نعرفها من قبل •

والحقيقة أن الظاهرة تتجاوز بكثير اطار الشبان ، وبالذات محيط الطلبة ، فهى ترتبط ارتباطا وثيقا بالتطور التقنى الذى حققته المجتمعات المعاصرة ، والتقدم المادى المذهل الذى أنجزته المخترعات الحديثة •

ولعل ما يهمنا فى المقام الأول حول ظاهرة التمرد عند الشبان ، أن نبحث أسبابها ، ونسبر أغوارها ، ومدى ارتباطها بالعصر الذى نعيش فيه ، ونقدر حجم المسئولية التى تقع علينا نحن « الكبار » ثم نستعرض أهم مظاهرها فى العصر الحديث •

**العنف والشباب :**

كان العنف ، وما زال ، ظاهرة لازمت الشبان فى جميع العصور • بل ان بعض الشبان ذهب فى عنفه الى حد التمرد •

ولكن السؤال الذى سنحاول الاجابة عليه هو : لماذا أصبحت هذه الظاهرة اليوم بهذه القوة وبهذه الشمولية ؟

أولا : لأن الشبان اليوم أكثر عددا من الشبان فى العصور الماضية • فالعناية الصحية ، وتقدم الطب ، والتغذية الجيدة ، كل ذلك أعانهم على البقاء والاستمرار فى الحياة • أما فى الماضى ، فقد كان عدد كبير منهم لا يعيشون فوق سن العشرين كثيرا • كما أننا أصبحنا اليوم نولى الشبان كبير الاهتمام ، بل ان نظرتنا اليهم قد تغيرت • ففى الماضى كنا ننظر الى سن الشباب على أنها مرحلة حرجة من العمر ، وفترة عقوق من جانب الأبناء ، بين الطفولة والرجولية ، وينبغى التعجيل باجتيازها والتخلص منها • وكان الشبان لا يشعرون بأى فخر ابلوغهم هذه السن ، بل كانوا يتقبلونها بما فيها من تصغير لقدرهم وتقليل لشأنهم • لا يحق لهم أن يرفعوا أصواتهم حتى سن الرجولة • وكان الكبار ، فى أفضل الحالات يبتسمون لما يصدر عن الشاب من مظاهر المعارضة العقيمة والعنف الباطل ، قائلين له بمزيج من السخرية والشفقة : « أنت ما تزال شابا ، يا بنى » •

ولم يكن الشاب العامل يتقاضى أجرا أقل من الرجل الذى يؤدى العمل نفسه ، وحسب ، بل كان لا يستطيع أن يطالب بأى تعويض أو مكافأة : أما الصبيان فكانوا لا يجرؤون على أن يطالبوا رؤساءهم أو معلميهم بالأجر ، بل كانوا يكافئونهم لأنهم يتعلمون المهنة على أيديهم ويكتسبون الخبرة بملاحظتهم ومخالطتهم •

ومن الملاحظ أن البنية الاجتماعية فى الماضى كانت تخص الكبار بالسيطرة والسلطان • وكانت سلطة الآباء لا تقبل المناقشة • أما اليوم ، وفى بعض المجتمعات الأوربية ، منذ أكثر من نصف قرن ، لم يعد الشبان البالغون يرجعون الى آبائهم فى اختيار وظائفهم أو مهنهم ، أو حتى فى اختيار أزواجهم وزوجاتهم • بل ان بعض الأبناء أصبحوا يعارضون الاتجاه السياسى لأسرهم •

ولا ينبغى أن ننسى الحربين العالميتين اللتين لا يفصل بينهما أكثر من ثلاثين عاما ، وكان من نتيجتهما القضاء على عشرات الملايين من الرجال الشبان. كذلك أدت هاتان الحربان الى تغييرات جذرية فى الأوضاع الاجتماعية لعدد كبير من الشبان الذين كانوا لا يتمتعون بأى نوع من السلطة فى الحياة الاجتماعية ، فأصبحوا بين يوم وليلة ، وقد تقلدوا مناصب رئاسية فى الجيوش ، وأصبحوا مسئولين عن حياة المئات من الرجال .

وكان شبان الماضى ينتمون الى عالم خنوع ، متواكل . كان الناس يعيشون كما اتفق ، على الخير والشر ، بل على الشر أكثر من الخير . وكان الانسان يعيش حياته التى قدرت له دون محاولة لتغييرها ، ويقوم بما يكلف به من أعمال ، ويسير فى الطريق الذى حدده له مصيره ، لا يفكر الا فى يومه .

أما أحفادهم ، وهم شبان اليوم ، فقد ولدوا فى عالم ( متمرد ) . ما كان يشغل آباءهم من معتقدات دينية ومفاهيم فلسفية ونظم اجتماعية وقواعد أسرية ، كان مصيره التراخى ثم الانهيار .

لقد نشأ شبان اليوم فى عالم يغلى ويفور ، صحيح أن الثورات فيه لا تزيد كثيرا عن مثيلاتها فى الماضى ، الا أنها أصبحت تتميز بسرعة الانتشار ، وذلك بفضل وسائل الاعلام المختلفة . كما أن أخبارها تصل الشبان مقرونة بتعليقات تختلف عن التعليقات المعارضة التى كانت تنشرها الصحف فى الماضى . لقد أصبحت تعليقات وسائل الاعلام السمعية والبصرية تثير فضول الشبان وتستهوى معظمهم .

وهناك سبب من الأسباب التى أدت الى زيادة موجة العنف والمعارضة عند الشبان ، يبدو لا علاقة له بالموضوع . وهو يتعلق بتغيير خريطة العالم ، فبعد أن كان العالم يخضع لسيطرة الدول الأوربية الكبرى والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا بشقيها الأوربى والآسيوى بالاضافة الى اليابان ، حصلت دول العالم الثالث ، وهى تمثل معظم الشعوب التى كانت مستعمرة ، على

استقلالها ، وقد اختارت هذه الدول الحديثة نظما سياسية تميل فى معظمها الى الاشتراكية • وبذلك أصبح أكثر من ثلث سكان العالم يعيشون فى ظل هذه النظم الاشتراكية ، وهذا ، فى رأى الغالبية العظمى من الشبان ، يعتبر انتصارا جزئيا لتمردهم وعنفهم •

وهكذا ، فقد فتح شبان العصر الحديث عيونهم على عالم يختلف تماما عن عالم آبائهم وأجدادهم •

ومما لاشك فيه — وهذا رأى المختصين من الأطباء — أن شبان اليوم يتفوقون جسدياوصحيا على أقرانهم من الأجيال السابقة ، وذلك بفضل الرعاية الصحية الأفضل المتوافرة لديهم ، وبفضل التغذية الأحسن كما ونوعا ، والغنية بأنواع الفيتامينات • كما أن مظاهر البلوغ والحاجات الجنسية تظهر عليهم فى سن مبكرة بالنسبة لأترابهم السابقين •

أما فيما يتعلق بالتفوق الذهنى والفكرى فان الموضوع لا يمكن الفصل فيه • كل ما هناك أن هذا التفوق مؤكد عند الأطفال الذين تتفتح مداركهم على كل معطيات الحياة الجديدة ، وذلك بفضل الأجهزة السمعية البصرية ، والتلفاز بصفة خاصة • فهم يقضون فى صحبة هذا الجهاز وقتا يفوق ما يقضونه فى حجرات الدراسة التى يدخلها أيضا فى بعض الأحيان • صحيح أنهم من خلال هذا الجهاز يتعلمون بطريقة سطحية أحيانا ومفزعة فى أغلب الأحيان ، الا أنه من المؤكد أنهم يتعلمون عن طريقه أضعاف أضعاف ما كانوا يجدونه فى الكتب •

لقد تحولت حضارة ( الكلمة المطبوعة ) بالنسبة لهم الى حضارة ( الكلمة المسموعة والمنظورة ) وهى ظاهرة لها أثرها السلبى على درجة الاتقان والتعمق فى تحصيل المعارف التى كانت فى الماضى أقل حجما ، الا أنها كانت أكثر استيعابا وهضما • نضيف الى ذلك أن هذا الاعلام المسموع المنظور يقتصر تقريبا على عرض ما يتعلق بالجوانب الحسية والمكشوفة بالاضافة الى الفزع والرعب •

وقد ثبت أن مثل هذه الآثار تتضاءل عند البالغين وتصبح أكثر ايجابية .

نضيف الى هذه العناصر الجديدة عنصرا آخر خطيرا ، يتمثل فى انفصال الشبان اليوم عن قواعد الأخلاق التقليدية ، وبعدهم عن القيم الدينية والأخلاقية والاجتماعية التى نشأ عليها آباؤهم وأمهاتهم .

ويؤكد ذلك أن المدارس العلمانية فى معظم الدول ( الأوربية بالذات ) قد حلت محل الجمعيات الدينية والخيرية التى كانت تتولى تعليم النشء وتربيته . ولا شك أيضا أن المعلم فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن العشرين كان يحرص على بث الأخلاق الفاضلة بين تلاميذه أكثر مما تفعل الآن المؤسسات التعليمية الحديثة .

**والنتيجة :**

من ناحية الأسرة ، تحولت ( الملكية البرلمانية ) الى ديمقراطية مناهضة للحكومة أحيانا . وأصبح الوالدان يقضيان معظم الوقت بعيدين عن البيت ، بعد أن زادت نسبة المرأة العاملة ، وتخلى كلاهما عن القيام بدور الواعظ والمربى . فقد أصبح كل منهما يحاول قدر الامكان أن يتجنب الصدام والمشكلات مع الأبناء ويغدق عليهما المصروف الذى كان فى الماضى لا يحصل عليه هو الا بتقتير شديد . وأصبح ما يقلق الوالدين اليوم هو ألا يجاريا ( روح العصر ) وأن يتهمهما الأبناء بالرجعية والأفكار المتأخرة ان هما أصرا على القيام بدور المرشدين أو الموجهين .

وتساهل الوالدان مع الأبناء فى سن الطفولة . ولا يكاد الطفل الآن يتجاوز العاشرة بقليل حتى يفضل الآباء منحه الاستقلال مؤثرين لأنفسهم الهدوء وراحة البال .

وعلى مستوى المدرسة ، فبعد أن كانت الهيئة التعليمية تقوم على خير وجه بواجب التعليم والتأديب والتربية ، بروح من التضحية وانكار الذات ، فى سبيل تحقيق المثل العليا، لم يعد لها اليوم تلك الهيبة القديمة ولا التأثير

السابق ، ولم يعد الجيل الحديث « يوفى المعلم التبجيل » ولا يعترف بأنه : « كاد ••• أن يكون رسولا » •

والحقيقة أن معلمى اليوم ، وهم فريسة لتيارات الحيــاة العصرية وما يكتنفها من خداع وشكوك ، لا يقفون على أرض صلبة ولا يســتطيعون أن يكونوا أفكارا واضحة صريحة ، ولا أن يتخذوا مواقف حاسمة نهائية من كثير من القضايا الحيوية • ومن ثم لا يستطيعون أن يؤكدوا لطلابهم حقائق ثابتــة أو قيما عامة • واذا كان المعلمون قد استطاعوا أن يتخــذوا موقفا معينــا فى مواجهة بعض أمراض العصر الحديث كالعنصرية والحروب والارهاب ، فانهم لا يعرفون كيف يواجهون عالم الغد الذى من المفروض أنهم يعدون له طلابهم •

أما الطلاب أنفسهم ، فانهم يعتبرون هيكل التعليم التقليدى غير صالح لمواكبة العصر • فاذا كان بوسعهم أن يحصلوا من خلاله المعلومات ، الا أنهم لا يخرجون منه بعتاد أخلاقى أو زاد أدبى يعينهم على مواجهة الأزمات الحادة وتجنب المشكلات العميقة ، التى تنتظرهم على أعتاب حياتهم العملية •

الشىء ذاته ، أو الشك ذاته يمكن أن يقال فيما يتعلق برجــال الــدين الذين أصبحوا يؤثرون التكيف مع العصر ويتجهون نحو العمل الاجتمــاعى الذى يسعى الى تخفيف آلام الناس على الأرض • غير أن الغالبيــة العظمى من الأوربيين اليوم أصبحوا ينظرون الى الدين على أنه حلم جميل لا أكثر •

وأخيرا وليس آخرا ، هناك على المستوى السياسى ، الأحزاب والحركات السياسية المختلفة التى تتجاذب الشباب وتتفنن فى استهوائه ، وهو لا يدرى حقيقة ما يحركها من أغراض عدوانية ، ومصالح حزبية ، أو شخصية ، وميول استبدادية أو دوافع انسانية •

ذلك هو الفراغ الكبير الذى يعيش فيه الشباب اليوم ، وتلك هى الظروف المادية التى يتعاملون معها ، وما أدى اليه هذا الفراغ وهذه الظروف المادية

من أزمات ظهرت نتائجها فيما يتصف به الشبان فى العصر الحديث من عنف، وتمرد ومعارضة .

### أحداث مايو ١٩٦٨ فى فرنسا

كانت أحداث مايو ١٩٦٨ م فى فرنسا هى ذروة هذا التمرد عند الشباب ، وأوضح ظاهرة على روح العنف والميل الى المعارضة بين أبناء الجيل الجديد .

لقد أدت هذه الأحداث الى زعزعة السلطة الحاكمة فى فرنسا ، ذلك البلد المستقر بالنسبة لغيره من بلدان أوربا . اذ لم يكن فى فرنسا بطالة تتجاوز الحدود المعقولة ، ولم تكن تعانى من حروب استعمارية بعد أن آثر ( ديجول ) تصفية الامبراطورية القديمة والانسحاب من معظم المستعمرات ، تاركا لأهلها حرية تقرير المصير .

على الرغم من كل ذلك ، ففى ربيع ذلك العام ، لاحت فى الأفق بوادر معارضة ، لم تلبث أن تحولت الى تمرد عنيف ، لم تشهده البلاد منذ اندلاع الثورة الفرنسية قبل قرنين .

والحقيقة أن ما حدث فى مايو ١٩٦٨ لم ينشأ من فراغ ، ولم يكن شيئا شاذا ، بل هو يمثل حلقة فى سلسلة من الانتفاضات التى شهدتها مناطق مختلفة فى أوربا : بودابست ١٩٥٦ ، وبراغ ١٩٦٧ . وفى فرنسا ذاتها كانت هناك أزمه طلابية عنيفة تعتمل فى نفوس الشباب ، مهد لها نوع من التراجع من جانب السلطة ، مقرون بحنث للعهود التى قطعتها الحكومة على نفسها لحل مشكلات الشبان ، هذا بالاضافة الى ما كانت تلقاه هذه المعارضة من تأييد أو تواطؤ من خارج أسوار الجامعة . كما لا يمكن أن نفصل ذلك كله عما كان يشعر به بعض الآباء والأجداد من « النبلاء » من مشاعر السخط على ما آلت اليه أوضاع الشبان ، وما ينعمون به من حريات وأمكانات لم تكن تتوافر فى الماضى . وهى ، فى رأى الآباء ، ثمرة جهادهم وكفاحهم الطويل .

بدأت النار ، كما هى العادة ، من مستصغر الشرر • اندلعت الشرارة الأولى من المدينة الجامعية ( أنتونى ) حينما أقام المسئولون حجرة حراسة على باب المدينة الجامعية لمراقبة الزائرين الذين كانوا يقصدون أجنحة الطالبات • وقد اعتبرت هذه الحجرة من قبل الطلبة نوعا من سور برلين ، وعلامة على الفضيحة والعار • فكيف يسمح للطلاب باستقبال الفتيات ، ويحظر ذلك على الفتيات •

والحقيقة أن الاضطراب الذى حدث فى البداية ، نشأ فى جو من الضعف وسوء الفهم من جانب الحكومة والأساتذة •

فقد أثار أحد الطلبة فى قسم الاجتماع أحد الوزراء ( وزير الشباب ) الذى كان فى زيارة للمدينة الجامعية • فما هى الا لحظات حتى حوصرت قاعة الأساتذة وهوجمت جميع المكاتب • واجتمع المتمردون تحت اسم ( حركة ٢٢ مارس ) •

جاء توقيت هذا الصدام الطلابى وسط الصراعات السياسية التى كانت على أشدها بين حركة ( الغرب ) وحركة ( الصليب المصلطى ) ، وهما حركتان يؤخذ عليهما الاتجاه الفاشى الواضح ، هذا بالاضافة الى حركة ( شباب تروتسكيست ) العنيفة التى تقوم على روح الثورة المستمرة ، وتهاجم الرأسمالية من ناحية ، والمركزية الستالينية من ناحية أخرى •

وانتقل مسرح الأحداث بعد ذلك الى مدينة ( نانتر ) وهى مقر لاحدى الجامعات ، وتتركز فيها الأيدى العاملة الأجنبية فى فرنسا ، ويعيش سكانها فى فقر مدقع حيث يتكدسون فى حجرات ضيقة ، ويضطرون فى برد الشتاء القارس الى الاغتسال خارج البيوت ، من مياه الصنابير العامة الشديدة البرودة •

ومن الطبيعى أن مشاهدة الطلاب لمثل هذه المناظر المخزية لا يمكن الا أن يثير مشاعر الغيرة والثورة •

ووقعت بعض الاضطرابات ، أدت الى اغلاق جامعة ( نانتر ) فتـوجه الطلاب نحو ( السوربون ) وأقيمت المتاريس فى أحد الشوارع القريبـة من الجامعة وأطلقت الأعيرة النـارية للارهاب • ولحسن الحظ لم تؤد الى قتـل أحـد •

وحاولت الشرطة تجنب الطلبة ، ولكن لم يكن هناك بد من استعمال بعض القسوة والعنف ، حتى مع الطلاب العزل •

كل ذلك أدى الى تصعيد الصدام بين الشرطة والطلبة ، ذلك الصـدام الذى كان لا بـد من وضع نهـاية له •

ولم يلبث العمال أن انضموا الى صفوف الطلاب ، واستغلوا هذه الفرصة المطالبة بزيادة الأجور ، كما حدث فى عام ١٩٣٦ م •

وحاول الطلاب أن يعبروا للعمال عن امتنانهم ، فتوجهوا نحوهم بصحبة الطالبات ، غير أن العمال قابلوا هذه البادرة من الطلاب ببرود ظاهر • وسخروا من أصحاب الشعور الطويلة ( مع أن العمال فيما بعد اتبعوا هذا التقليد ) • كما سخروا من دروس العنف التى حاول الطلاب تلقينهم اياها • وعارضـوا شعارات الثورات الدائمة التى ينادى بها الطلبة ، أبناء البرجوازيين •

المهم ، هـذه المحاولة لعقـد اخاء بين الطلبة والعمال ، باءت بالفشل •

بعد ذلك بدأت المعارضة تتخذ أشـكالا أخـرى ، وتحـولت جامعـة السوربون الى ما يشبه منتدى للقاءات أو ساحة سـوق أو مولد • وتحـول ( الأوديون ) المسرح الفرنسى ، الى ساحة محكمة اختفت أرضها تحت أكداس الأوراق المهملة وأعقاب السجاير ، بحيث أن الطلاب القـدامى ، أو الآبـاء ، الذين درسوا فى السوربون وترددوا على هذا المسرح فى الماضى ، أصـيبوا بالذهول حينما شاهدوا هذه الأماكن من فرط ما أصابها من تغيير •

وارتفعت الأعلام الحمراء والسوداء ، وأخرى تحمل شعارات عدائية ، فوق التماثيل التى تشرف على مدخل كنيسة السوربون • وشغل الخطباء المرتجلون من الطلاب منصات الأساتذة العظام ، وجعلوا يعلنون عن أفكارهم الجديدة • وانتهز المرتزقة ، وكان معظمهم من كاتانغا ، الفرصة وأعلنوا عن استعدادهم لتقديم الخدمات • كان منظرا غريبا •

« انه زمن الجدران التى تتكلم » ، على حد تعبير أحد الكتاب الفرنسيين • فقد غطيت الجدران بشعارات بالغة القسوة ، لم تكن فى الحسبان ، بعضها ضد رئيس الدولة • وبعضها يطالب المسئولين بالتخلى عن السلطة • متخذة من بعض العبارات الشهيرة وأبيات الشعر المعروفة وسيلة الى ذلك • كهذا البيت للشاعر الفرنسى المعاصر ( بول فاليرى ) الذى يقول :

« هبت الريح ، وحان وقت الرحيل » •

وانتهى العرض ، أو بمعنى أصح ( الدراما النفسية ) التى اتخذت من جامعة السوربون ومسرح الأوديون منصة لها ، وذلك بعد عودة ( جورج بومبيدو ) من أفغانستان • وعودة الجنرال ( دوغول ) الغامضة •

وقدمت بعض التنازلات الضرورية للطلاب الذين منحتهم الجامعات الجديدة حق ( المشاركة ) على أسس جديدة • أما العمال فقد حصلوا على زيادات كبيرة فى الأجور •

ولكن الطلاب اعتبروا هذه المكاسب مؤقتة وعرضة للضياع • أما العمال فقد اعتبروا مكاسبهم كأنها لم تكن ، وذلك بسبب ارتفاع الأسعار •

وتم اخلاء السوربون والأوديون بواسطة الشرطة دون حوادث جديدة ، وهما فى حالة يرثى لها ، حالة يمكن أن يذهل لها ، بل ويرتعد ، أساتذة الجمهورية الفرنسية الثالثة والممثلون القدامى فى ثانى مسارح فرنسا ، بعد ما أصابهما من التخريب والدمار •

## مظاهر الاعتراض والتمرد فى العالم :

يتخذ الاعتراض والتمرد ألف شكل • فيمكن أن يكون باطلاق الشعر واللحى ، ويعبر البعض عن تمردهم بالسير حفاة ، أو بارتداء ملابس غريبة مهلهلة •

كما يمكن الاعتراض والتمرد باللافتات أو الاعلام التى يرفعها الشبان فى مظاهرات سلمية تضم الآلاف منهم يعلنون عن رفضهم لأساليب القمع والارهاب فى الداخل والخارج •

والحقيقة أن الاعتراض يتخذ أسماء مختلفة كما أن الهدف منه يختلف من بلد الى بلد ومن عصر الى عصر •

وسنحاول أن نستعرض أشهر أساليب الاعتراض والتمرد فى العالم فى العصر الحديث •

## هيبى — بيتلز — بروفوس — بيتنيكس — والمعترضون السياسيون :

يشاهد السائحون فى العالم ، شماله وجنوبه ، شرقه وغربه ، أنواعا من الاعتراض وأنماطا من التمرد لا حصر لها •

من ذلك أنه فى عام ١٩٥٣ م كان المارة فى ضواحى لندن النائية يشاهدون بعض الشبان المراهقين من ذوى الشعور الطويلة الشعثاء وهم يتبارزون بحطام الزجاجات الفارغة فى عرض الطريق •

بعد ذلك بفتر وجيزة ، أخرجت انجلترا للعالم نوعا آخر من ( البيتلز ) من الموسيقيين والمغنين المسالمين باعوا الملايين من الاسطوانات فى أنحاء العالم •

وفى الخمسينيات أيضا استقبلت سواحل فرنسا أعدادا من ذوى القمصان

السوداء ، كانوا يتصرفون على شاكلة الشعراء الصعاليك وما تزال بقية منهم تشاهد فى بعض السواحل الفرنسية •

وفى عام ١٩٥٧ م فى ستوكهولم ، تلك المملكة التى كانت مشهورة بهدوئها ، وفى مناسبة الاحتفال بمولد أحد القديسين ، شاهد المارة مجموعات من الشبان فى حالة هيستيرية جماعية • وكان بعضهم ينفس عن عقده بتحطيم زجاج النوافذ فى بيوت أعز أصدقائهم •

أما ( الهيبيز ) فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى هذه الدولة الغنية التى لا يفكر الكثيرون فيها الا فى جمع الدولارات ، فقد فضلوا حياة اللامباة وركنوا الى الكسل والخمول • يعيشون على اعانات ذويهم وعلى صدقات المارة أو نفحات بعض المجالس البلدية ، أو كبار الأغنياء ، الذين يعتبرونهم ثوارا من النوع الذى لا يسبب ضررا • أما ( الهيبيز ) أنفسهم فهم يعتقدون أن مجتمعا مثل الولايات المتحدة يعانى من فائض الانتاج والثروة كفيل بأن يعولهم • كما أن الغناء والعزف والتسكع فى الحدائق العامة لا يؤثر فى البنية الرئيسية فى المجتمع •

وظهر ( البروفوس ) فى أمستردام ، وهى كلمة معناها ( المشاغبون ) وهم يتميزون بشعاراتهم الغريبة وملابسهم الرثة • وهم فى معظمهم من الشبان • ولم يمنع ذلك من أن ينضم الى صفوفهم كاتب فى السابعة والستين من عمره • وعلامتهم المميزة هى اللون الأبيض • فالدراجات بيضاء ، وكذلك المداخن دون دخان ، والزوجات أيضا بيض وهن خبيرات فى منع الحمل •

وكذلك كان للروس نصيبهم من الهيبيز ، وهم يسمون الـ ( بيتنيكس ) • ويعارضون النظام المفرط ، والدقة والرتابة فى زى المواطنين • كما أنهم كانوا يسرفون فى شرب الفودكا • ولم تكن مثل هذه التجاوزات والتصرفات الغريبة تلقى تأييدا من النظام الحاكم الذى لا يسمح بالشغب والشذوذ ، ولا يرضى لمثل هؤلاء البلهاء أن يغيروا من أسلوب الحياة الذى درج عليه أكثر من مائتين وخمسين مليونا من ( الرفاق ) •

وما أكثر المتمردين الذين ينتشرون فى العالم من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، يدافعون عن قضية معينة ، ويعارضون فى ذلك النظام القائم .

بيض من ألمانيا الفدرالية ، وسود من الولايات المتحدة الأمريكية ينددون بالتفرقة العنصرية أو يطالبون بالحكم للسود ، وآخرون يدعون الى السلام ونبذ الحروب . يعارضون حرب فيتنام . وطلاب من تركيا واليابان ومن أيران واليونان ، وغيرهم من انجلترا وايطاليا وسكاندينافيا وفرنسا .

واذا انتقلنا الى المعسكر الشيوعى ، وجدنا شباب بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا بل والاتحاد السوفيتى نفسه . فقد شوهد الشبان فى موسكو وفى لينتجراد يتظاهرون أمام معبد اليهود الكبير وفى الميدان الأحمر نفسه . رفعوا أصواتهم أمام المحاكم مطالبين بحقوق الانسان والحرية . بل وصل الأمر الى أن قام بعض الأساتذة بارسال خطابات مفتوحة الى أعلى سلطة فى الاتحاد السوفييتى يعبرون فيها عن تأييدهم لهذه المطالب .

ولا أدل على هذا التمرد فى الاتحاد السوفييتى من انتشار الأدب السرى الذى يؤكد وينادى فى ذات الوقت بعودة روح المعارضة الليبرالية . ان هذا الأدب يصدر اليوم عن الأوساط الأدبية والعلمية ولم يصبح مصدرا للخطر كما كان على عهد ستالين ، حيث كان الناس يتهامسون بالوصايا الخمس التى يتطلبها الحذر وتمليها الحيطة :

- لا تفكر .
- اذا فكرت فلا تتكلم .
- اذا كتبت ، فلا تنشر .
- اذا نشرت ، فلا توقع .
- اذا وقعت ، فأنكر .

## الحـــــرس الأحمـــر :

وفى الصين ، أصبح الحرس الأحمر أشهر من أن يحتاج الى تعريف • ان هؤلاء الحرس ، وهم طليعة الثورة الثقافية فى الصين ، يمثلون طائفة خاصة من المعارضين • ومن المعروف ان هذه الثورة الثقافية التى نظم صفوفها ثم كبح جماحها ( ماوتسى تونج ) نفسه ، كانت فى الأصل موجهة ضد بيروقراطية الدولة ، موظفى المكاتب المتهمين بمعارضة النظام • وقد استغلت هـذه الثورة بكل ذكاء وحنكة الصراع بين الأجيال • وكان الهدف منها هو تصفية المحافظين والقضاء على كل أثر للبرجوازية •

وبدأت هذه الثورة بارسال مئات من الآلاف من الشبان الى عـدد من المحلات والمخازن حيث كان فى انتظارهم كميات ضخمة من الملابس ( زى موحد ) مع الأشرطة التى تمثل شعار الحرس الأحمر •

وكانت المدارس والجامعات قد أغلقت بصفة مؤقتة وانتشر الشـبان ، بعد ارتداء هذا الزى ، فى القرى تنقلهم القطارات مجانا الى مختلف بقـاع الجمهـورية •

ومن الجدير بالذكر أن هذه الثورة الصينية سبقت أحداث مايو ١٩٦٨ م الفرنسية ، حيث وقعت فى عام ١٩٦٦ م وكان يقودها ويحركها أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى • وكانت هذه الحركة تزعم أنها ثورة الثـورة • وكانت تجوب الشوارع على نغمات الموسيقى الصاخبة • ومن العبـارات التى كانت تتردد فى ذلك الوقت أن « الشبان أطلقوا لكى يقطعوا دابر الفساد » ، ويقضـوا على كل أثر للمركزية التى تشبه مركزية الاتحاد السوفيتى الذى أصبح مع الولايات المتحدة يمثل العدو رقم واحد • وقد أعلن الزعيم الصينى ( ماوتسى تونج ) عن سروره لأعمال هؤلاء الشبان ، حتى وجد أن من المصلحة ايقاف هـذه الحركة •

## معارضـــة الأب :

قبل أكثر من ستين عاما ، وبعد أن ضاق بضغوط أسرته ، أطـلق أندريه جيد صرخته المدوية التى يصرح فيها ببغضه للأسرة : « أيتهــا الأسرة ، كم أبغضـــك ! » •

والحقيقة أن الآباء المتسلطين فى زمننا هذا يقلون يوما بعد يوم • كما أن مسئوليتهم عن ظاهرة التمرد العالمى عند الشبان ليست فى المقام الأول •

ان استطلاعات الرأى التى أجريت حديثا تدل على أن الأبناء لا يكنـــون لآبائهم أية كراهية أو بغض : « انهم يحبوننا ، ويعطوننا كل ما نحتاج اليـــه من نقود ، لكنهم لا يفهموننـــا » •

فالحقيقة هى أن المشكلة تتعلق بالأطفال أكثر من الشـــبان أو المراهقين فالأطفال هم الذين ليس لهم كلمة حتى الآن ، والنظرة اليهم على أنهم قصر أو « تحت الوصاية » أمر ثابت لا يقبل المناقشـــة •

وقد حاول بعضهم ، ومنهم ( جيرار ميندبل ) فى كتابه ( من أجل استقلال الطفل ) أن يدافع عنهم ، مؤكدا أن الطفل يعانى من تحكم الآخرين ، ولا أحد يحاول أن يحرره من هذه السيطرة • تحكم من النـــوع الأبوى ، مصـــحوب بالحنان الذى يمكن أن يكون شكلا من أشكال الضغط أو الاضطهاد •

يقول ميندبل : « جرت العادة ، على مر الأجيال ، أن يقال للطفل : هـــذا لا يخصك ، هذا من شأن الكبار •••• » والأدهى من ذلك أن يقال له : « اذا لم تطعنا ، فلن نحبك ••• » • هذا التهديد الفعال يمارسه الآباء ، وأفضلهم •

وبذلك ، فان الخوف من فقدان حب الآباء ، أو الخشية من التعرض للهجران من جانبهم ، يمنع الطفل من محاولة الحصول على استقلاله • وعلى هذا النحو يستغل الآباء لصالحهم عدم تكافؤ القوى •

غير أن تغيرات جوهرية طرأت فى الآونة الأخيرة على علاقات القوى • وأصبح مفهوم السلطة وما يتعلق بها مطروحا على بساط البحث فى كل مكان فى العالم ••• وساعد على ذلك أن الطفل اليوم لا ينتقل مباشرة ، كما كان يحدث فى المجتمع الاقطاعى ، من حضن الأم الى عالم الكبار • بل أصبح يعيش مع رفاقه فترات أصبحت تطول بمرور الزمن • ولم يعد للماضى ما كان يتمتع به من قدسية • كما أن الوسائل الفنية تتجدد كل يوم مما قلل من أهمية التجارب القديمة • حتى أن الكبار اليوم أصبحوا لا يثقون فى أنفسهم وفى خبراتهم •

وهكذا ، أصبح الطفل يميل الى أن يكون ( طبقة اجتماعية سياسية ) منفصلة عن الكبار •

وينصح مؤلف الكتاب بأن يستشار الطفل منذ السابعة من عمره فى جميع القرارات التى تتعلق به : اختيار المنزل ، قضاء الاجازة ، الدراسة ، وليس فقط ، كما يحدث اليوم ، فى أمور ملبسه والهدايا التى تقدم له • وينادى المؤلف بأن يعطى الطفل حق الانتخاب فى الثانية عشرة من عمره ، حق ترشيح نفسه فى السادسة عشرة • فالطفل كما يقول « لا ينتمى للأسرة ، ولا للدولة • انه لا ينتمى الا لنفسه وحسب » •

ان نظرية ( جيرار مينديل ) تستحق الدراسة والتأمل الى حد ما • ولقد استجاب لها الآباء والمعلمون فاعترفوا للطفل بنصيب أكبر من الحرية والاستقلال •

أما بالنسبة للانتخاب والترشيح ، فالواقع يقول بأن الطفل اذا استمر على معدل نضجه الحالى ، فان منحه حق الانتخاب والترشيح لن يثير فى المستقبل أية غرابة أو استهجان • بل قد يطلع علينا من يجد هذا الحق دون المطلوب •

**معارضة الذكر :**

وهناك سيطرة أخرى من نوع آخر ولكنها فى طريقها للزوال ، تتعرض لهجوم من جانب نوع معين من الضحايا • صاحب هذه السيطرة هو الذكر أو الرجل ، الذى كان يمارس قانون الأقوى ويعتبر تفوقه الجنسى سببا لسيطرته على المرأة التى رضيت بهذه السيطرة ، لأنها تعتبر نفسها أضعف من أن تتخلص منها ، أو لأنها تجد فى اشباع حاجاتها عن طريق الطرف الآخر نوعا من السلوى أو المكافأة المجزية •

وتجمع الأديان السماوية على تأكيد دور المرأة بصفتها تابعة للرجل •

ويهمنا فى هذا الصدد أن نشير الى ظهور معارضة المرأة لهذا الوضع فى القرن التاسع عشر ، مع انتشار الأفكار الاشتراكية •

ثم جاء القرن العشرون ، وبالذات ثلثه الثانى ، فحقق خطوات حاسمة فى سبيل منح بعض الحريات للمرأة • من ذلك الاعتراف بحقها الانتخابى وفى ترشيح نفسها فى كثير من الدول • ولعل فرنسا قدمت أكبر دليل على تأييدها لهذا المبدأ حينما قام ( ليون بلوم ) عام ١٩٣٦ م بتعيين ثلاث نساء وزيرات فى حكومته • وبعد تحرير فرنسا ، حصلت المرأة على حقوقها السياسية كاملة • وقد شهد الربع الثالث من هذا القرن ثلاث نساء فى منصب رئيس الوزراء فى ثلاث دول ، وثلاث نساء أخريات فى منصب رئيس الدولة فى دول أوربية •

ولعلنا لا نجد اليوم مجالا من مجالات الحياة ليس للمرأة فيه تمثيل •

ومع ذلك ، فان كثيرات من ( النسويات ) أو أنصار المرأة يعبرن عن عدم رضائهن لوضع المرأة • فهن يرين أنه ما تزال هناك مظاهر كثيرة للظلم الواقع على المرأة • كما يرون أن من الظلم عدم تطبيق قاعدة ( المساواة فى الأجر نظير المساواة فى العمل ) • كما يهاجمن تعيين المرأة على درجات أدنى من الرجل بالرغم من مساواتها له فى الكفاءة بل وتفوقها عليه أحيانا • كما يرين أن المرأة

تقوم بأعباء البيت بالاضافة الى عملها فى الخارج ، الأمر الذى يثقل عليها ويجعلها فى وضع أسوأ من وضع الرجل •

ولعل أكبر حملة ضد الرجل جاءت من جانب النساء الكاتبات والصحفيات • حتى ان احداهن أصدرت كتابا بعنوان ( أما يزال هناك رجال ؟ ) تناقش فيه ما أطلقت عليه ( العنصرية ) التى يمارسها الرجل على المرأة •

أما كتاب ( خطاب مفتوح الى الرجال ) فان مؤلفته كانت أعنف هجوما ، حيث نددت بعدم المساواة فى الحقوق فى التشريع ، وفى الحياة الأسرية والاجتماعية • ووصفت الرجل بأنه ( طاغية حقير ) يستبد بالمرأة •

والحقيقة أن الحملة التى تشنها النساء خارج مجال الأدب ضد الرجال أشد شراسة وأكثر رعونة ، بعضها يعتمد على منطق معوج وحقائق تبعث على الخجل • ومن الغرائب فى هذا المجال ما ذهبت اليه بعض الجماعات النسائية فى أمريكا من المطالبة فى برامجهن الاصلاحية بخصى الرجال وحرمانهم من قوتهم الجنسية •

الحقيقة أنه غاب عن هؤلاء المطالبات بالمساواة بين الرجل والمرأة فى العمل ، أن هذا ليس فى صالح المرأة • فتركيبها الجسمى أولا لا يسمح لها بالقيام بالمهام التى تطلب من الرجل • كذلك فان واجباتها كزوجة وكأم لا بد أن تؤخذ فى الاعتبار عند أى تشريع اجتماعى •

ومن ناحية أخرى ، لا ينبغى أن نغفل التطور العظيم ، على المستوى النفسى ، من جانب الزوج الحديث ، على الأقل فى البلدان المتطورة • وكذلك فقد تفهم هذا الزوج ( العصرى ) ظروف المرأة وتحمل عنها جانبا من أعمال البيت : كالمساعدة فى أعمال المطبخ ورعاية المولود • كما أن مشهد الزوج الذى يدفع عربة الطفل الوليد أصبح شائعا فى هذه الأيام • واذا كانت الزوجة ما تزال تقوم بمعظم الأعمال المنزلية ، فقد أدرك الزوج ، أفضل من ذى قبل ، أن الموضوع لا يخص المرأة وحدها • بل يهمه هو أيضا وبطريقة مباشرة •

وعلى ذلك ، فان اعتراض المرأة ينبغى أن يتجه نحو تحقيق نـــوع من التوازن والتوافق والتفاهم : واذا كان لا بد من المساواة ، فينبغى أن تأخـذ هذه المساواة فى الاعتبار الاحترام المتبادل والاختلافات الجوهرية ( البيولوجية ) العضوية والنفسية ، بين الطرفين ، لأن المساواة المطلقة ، الشكلية ، لن تـكون فى صالح المرأة التى ستكون هى الضحية فى نهاية الأمر .

**الاضـــطهاد العنصرى والوطنى والاجتمــاعى :**

ضد هذه الأنواع الثلاثة من الاضطهاد ، بلغت الاعتراضات ذروتها فى كثير من بلدان العــالم .

أما العنصرية ، فقد كانت ، وما تزال ، سببا فى اندلاع انتفاضـــات تزداد حدتها يوما بعد يوم . ولا أدل على ذلك مما يجرى اليوم فى جنوب أفريقيــا واسرائيل . كما أنها أصبحت تتخذ أشكالا متعددة ، وأصبح من الممكن أن يتحول الضحايا الى جلادين والعكس بالعكس .

وأما الاضطهاد الوطنى ، فاذا كان القرن العشرون قد شــهد استقلال العديد من دول العالم الثالث ، فان الكثير من هذه الدول ما تزال فى صراعات مع المستعمر القديم ، حول مشكلات فى معظمها اقليمية واجتماعية .

ولعل حرب ( فيتنام ) كانت أكبر ظاهرة على هذه الصراعات . بالاضافة الى حروب ( بيافرا ) و ( بنجلادش ) . وأخطر من ذلك كله ما يشهده الشرق الأوسط وما يزال يعانى منه : العرب / اسرائيل ، والعراق / ايران .

بل اننا فى داخل الامبراطوريات القديمة ، نشاهد بعض الاقليات الوطنية تعانى من الاضطهاد الاقتصادى ، وتقوم بأعمال عنف من آن لآخر . ومثال على ذلك ، ما يحدث فى ايرلندا بين الأغلبية البروتستانتية والأقلية الكاثوليكية .

وفى أفريقيا وأمريكا اللاتينية ، تتخذ المعارضة فى بعض البلدان أشـكالا أشد عنفا وضراوة . وهى تتركز حول الوجود الاقتصادى للولايات المتحـدة

الأمريكية ، والتى تتهم بأنها تساند الحكومات الدكتاتورية اليمينية فى كثير من البلدان • وأصبحت حرب العصابات هى التعبير الشائع عن هذه الصراعات •

**معارضـــة الاشـــتراكية والنقـــابات :**

ولعل أهم معارضة كانت ، وما تزال بالنسبة للأحزاب الثورية والنقابات ، تدور حول سوء توزيع الثروات •

وتسعى هذه الأحزاب والنقابات الى تطبيق شعار : ( العدالة بعد الحرية ) والتغيير المنشود يهدف أولا الى اصلاحات فورية : وضع حد أدنى للأجور يواكب سلم الأســعار المتحرك ، ضرائب ديمقراطية تقل كلما قلت الدخول ، زيادة الضرائب على رءوس الأموال الضخمة ، تخفيض ساعات العمل الأسبوعية ، فتح مدارس جديدة وتخفيض عدد التلاميذ فى الفصول •

هذا بالاضافة الى اصلاحات أخرى تتركز حول تأميم قطاعات الاقتصاد الكبــــرى •

ومن هذه الاصلاحات أيضا تشجيع وتطـوير البحث العـلمى والأدبى وحمايته من الاســـتغلال •

وعلى المستوى الخارجى ، تنحصر الاصلاحات فى انتهاج سياسة مستقلة ، والتعاون مع الدول الأخرى بما يحقق المصالح الوطنية والسلام العالمى •

والحقيقة أن المطالب لا تتوقف عند حد معين ، ولا تهدف الى تحســين أوضاع الفئات المظلومة وحسب ، بل تعارض كل أنواع الظلم وعدم المساواة •

وقد وصل ذلك الى حد المطالبة بأعادة النظر فى تقييم المهن والوظائف ، والمطالبة بجعل المهن الدنيا أكثر أجرا ، حتى وان كانت لا تتطلب دراســة أو اعدادا ، وهو الواقع فعــلا •

نضيف الى هذه الاعتراضات ما تجلى فى السنين الأخيرة من خيبة الأمل فى العلوم العصرية والمجتمعات الصناعية التى لم تستطع أن تحقق الرخاء والسعادة لأبنائها، بدأت تيارات المعارضة ضد قيم الليبرالية القديمة التى اتهمت بأنها تخدم أغراض الاضطهاد •

بل لقد ذهب بعضهم الى معارضة الحضارة الغربية نفسها والعودة الى البساطة القديمة ، فقد تجلى أن التقدم المادى يجلب من المضار أكثر مما يحقق من المنافع • فالانتاج يقضى على ثروات أكثر من التى يهيئها للناس • ووسائل الانتقال السريع تضيع من الوقت أكثر مما تختصر منه • والتعليم الذى نظن أن نشره يحقق الديمقراطية يؤدى الى تربية وطنية عامة لا يستفيد منها الا الخاصة • والطب يسبب من الأمراض والمرضى أكثر مما يشفى •

كل ذلك أدى ، كما أسلفنا ، الى الدعوة للعودة الى البساطة القديمة : الى الأعمال المهنية والزراعية ، واستعمال الدراجات ، والأدوات الخفيفة ، والعلاج الطبيعى باستخدام ما يتوافر فى البيئة من عقاقير وأعشاب •

*L.E. Borowski / R.B. Jachmann*
*E.A. Wasianski*

# KANT INTIME



*Textes traduits de l'allemand,*
*réunis et présentés par*
JEAN MISTLER
*de l'Académie française*

Grasset

L. E. BOROWSKI/R. B. JACHMANN
E. A. WASIANSKI
KANT
INTIME

GRASSET, 1985

## كانـــط فى حيـــاته الخاصـــة

**« حاول ( كانط ) أن يشترى من جاره ديكه الذى كان يزعجـه فى لحظات تأمله . الا أنه لم يتمكن من اقنـــاع الجـــار الذى كان يتعجب كيف أن ديكا بسيطا يمكن أن يزعج فيلسوفا عظيما »**

الفيلسوف الألمانى (كانط) ، صاحب الكتب الشهيرة : « نقد العقل المجرد ، نقد العقل العلمى » ، « نقد الحكم » وكتاب « الأصول الميتافيزيقية للعادات والتقاليد » وأكثر من ستين كتابا آخر ، وأستاذ المنطق والميتافيزقيا بجامعـــة كونيغسبرج Konicigsberg

هذا الفيلسوف والأستاذ الكبير لم يكن يعرف كيف يبرى قلمه ، وكانت له طريقة خاصة فى الأكل والشرب ، والنوم ، والسير ، ومعاملة الناس ، وكان شديد القلق على صحته ، عصبى المزاج ، كثير اللغو ، أشـــبه بشـــخصيات ( صامويل بيكيت ) المضحكة المبكية معـــا .

وهذا الكتاب « كانط..فى حياته الخاصة » يتألف من ثلاث دراسات وضعها بعض أصحاب كانط وتلاميذه ، نشر عام ١٨٠٤ م ولم يترجم حتى العام الماضى حيث عثر عليه فى المكتبة الوطنية فى باريس ، هذا الكتاب يضم مجمـوعة من الحقائق أو الحكايات حول حياة ( كانط ) الخاصة بعيدا عن أضواء الجامعة ، وعن جلال الفلسفة . يرفع النقاب عن ( كانط ) الانسان فنجده غريب الطباع ، ينفر من الناس ، ويتجنب العرق ، شديد الحرص على أن يمتد به العمر أطول

من أترابه ، بل كان يتمنى أن يبدأ حياته من جديد • يبتهج كلما اقتــرب من الثمانين ، ويسعد كلما علم أنه عاش أطول من فلان من المعمرين أمثاله ، ويتأكد بذلك من كشف الوفيات الذى كان حريصا على أن يطلع عليه بنفسه وبصـــورة دورية فى مركز شرطة الحى •

كان ( كانط ) متوسط الطول ، معتدل القامة • غير أن كتفه اليمنى كانت أعلى من اليسرى ، كانت عيناه زرقاوين جميلتين ، الا أن اليسرى كانت لا تؤدى وظيفتها على الاطلاق •

كان فى حياته المديدة يرى أن من المهم أن يؤدى الانسان بانتظام بعض التدريبات الرياضية • فكان يمشى كل يوم مهما كانت حالة الجو • وكان فى شبابه يسير مسافات طويلة فى صحبة أحد الأصدقاء ، أو بعض الطلاب بعــد الانتهاء من المحاضرات ، أما فى شيخوخته ، فقد كان يفضل التنزه بمفرده ، لأنه كان يرى أن السير مع الكلام فى ذات الوقت مجهد للصحة •

كان يتجنب العرق الذى لم يكن يطيقه ، وفى أخريات حيــاته ، ولكى يتجنب السعال والعطس ، كان يرى أن المشى يجعل الانسان يحافظ على فمه مغلقا ، مما يجعله يتنفس من أنفه ، وكان يعانى من آلام فى صدره ولكنه لم يكن يعيرها أى اهتمام اذا جلس يحاضر أو يكتب •

كان «كانط» لايعطى الحياة المادية من القيمة أكثر مما يجب • صحيح أنه كان يشعر بالسعادة لبلوغه من العمر ما لم يكن يعتقد أنه سيبلغه ، وكان يعتبر ذلك نتيجة فن كبير فى الحياة ، وكان « كانط » يردد على الملأ أنه يتوق الى أن يبدأ حياته من جديد • كأن يتمنى أن يعيش دون أن يشعر بألم قدر المستطاع ، وأن يموت أيضا دون عذاب بالسكتة القلبية أثناء نومه •

**( كان « كانط » يستمر على مائدة الغذاء من الواحدة حتى الرابعــة أو الخامسة • وبعــد أن ينصرف المدعوون كان يقوم**

**بنفسه بترتيب الأطبــاق والشوك والسكاكين وغيرها من أدوات الطعــام ، ثم يقــوم بنزهة على الأقدام دون أن يشرب قهوة أو شايا ) •**

ومن ثم كان اهتمامه الشديد بجســمه وبحالته الصــحية ، من ثم أيضــا كانت مناقشاته الطويلة حول أفضل الطــرق للمحافظــة على الصــحة ، واهتمامه الشديد بما يحققه الطب فى مجال العلاجات والتقدم الذى تحــرزه الكيميــاء وينعكس على الطب •

كان « كانط » ينام كل ليلة سبع ساعات ، وكان يرى أن هذا القــدر من الراحة فيه الكفاية ، فلم يكن يسمح لنفسه بالنوم أثناء النهــار ، كان ينهض من فراشه فى تمام الخامسة صباحا ، ومن التعليمات التى كان خادمه يتقيد بها حرفيا ألا يتهاون فى ايقاظ سيده فى الموعد المحدد ، مهمــا حاول « كانط » الاستمرار فى النوم •

وقد حدث يوما ، خلال خدمة دامت ثلاثين عاما ، أن طلب « كانط » من خادمه هذا أن يتركه ينام نصف ساعة أخرى زيادة على المدة المحددة ، فمــا كان من الخادم الا أن رفض فى اصرار قائلا : « أبدا ! أبدا ! » •

ظل « كانط » زمنا طويلا يتناول غداءه فى مطعم كان يجــد فيه صــحبة لطيفة ، غير أنه هجر هذا المطعم الى مطعم آخر لأنه وقع ضحية شخص كان يزعجه برواية حكايات تافهة بطريقة تثير الأعصاب • ثم غير المطعم الجديد لأن بعض السخفاء كانوا يلاحقونه ويقرأون عليه انتاجهم الأدبى •

ومما يروى عنه أنه حينما كان يعجبه صنف من الطعام كان يطلب مــن المطعم طريقة صنعه ، كما أنه لم يكن يميل الى الأكلات المعقدة • كل ما هناك أنه كان يتمسك بأن يكون اللحم طريا والخبر والشراب من النوع الجيد ، وكان يتأنى فى تناول الطعام ، ولا يغادر المائدة بمجرد الانتهاء من الأكل •

وفى شبابه ، كان « كانط » بعد أن ينتهى من القاء محاضراته ، يذهب الى المقهى فى أغلب الأحيان قبل وجبة الغداء ، وكان يحتسى قــدحا من الشاى ، ويتطرق الى الكلام فى أحداث اليوم ؛ ثم يلعب دور ( بيليياردو ) ، وفى المساء كان يحب أن يلعب الورق لأنه كان يعتقد أن فى ذلك تنشيطا للذهن .

بعد عام ١٧٩٨ م لم يعد « كانط » يحب أن يتناول الطعام وحــده فى بيته ، فكان يدعو اليه بعض الأصدقاء ، وكان يستمر على مائدة الطعــام من الواحدة حتى الرابعة أو الخامسة ، وبعد أن ينصرف المــدعوون كان يقــوم بنفسه بترتيب المواعين والسكاكين والشوك وغيرها من أدوات الطعام ، ثم يقوم بنزهة على الأقدام دون أن يتناول قهوة أو شايا .

كان يأوى الى فراشه فى العاشرة مساء ، وفى أخريات حياته كان يبــدأ النــوم فى التاســعة .

كان « كانت » لا يتمسك باتباع آخر طراز ( مودة ) فى ملابسه ، ولكنه كان يردد دائما أن من الواجب ألا يهمل الانسان موضوع الثياب ، كما ينبغى الاعتناء باختيار الألوان الملائمة ، وكان يدعو الى الاقتداء بألوان شــجيرات تظهر فى فصل الربيع صفراء الأزهار . فكان يحبذ ارتداء زى كستنائى اللون مع صديرية صــفراء .

وحينما كان تقليد حمل السيف القصير سائدا ، كان « كانط » يتبع ذلك العرف ، وحينما اختفت هــذه الظاهرة زهد « كانط » فى تلك العــادة المربكة ، وكان يعتنى كل العناية بزينته ، اللهم الا ما يتعلق بالقبعات أو بمعنى أصح بالقبعة ، فقد ظلت احداها تلازمه زهاء العشرين عاما ، وقد بيعت هذه القبعة بعد موته فى مزاد علنى بثمن مرتفع .

ويؤكد أحد مؤلفى هذا الكتاب أنه رأى « كانط » وتحدث اليه فى ست بيوت عاش فيها على التوالى فى مدينة كونيغسبرج ، فكان الفيلسوف دائمــا

ينشد الهدوء والسكون . وقد غير مسكنه أكثر من مرة بسبب ذلك ، فقــد ترك مسكنا قريبا من الميناء بسبب ضوضاء البواخر وعربات النقلا لتى لم يــكن يطيقها ، كما زهد فى مسكن آخر بسبب جار له كان يقتنى ديكا كان صياحه يزعج الفيلسوف فى لحظات تأمله ، وكان قد حاول مرارا أن يشترى هذ االديك بأى ثمن ليرتاح من ازعاجه ، الا أنه لم يتمكن من اقناع الجار الذى كان يتعجب كيف أن ديكا بسيطا يمكن أن يزعج فيلسوفا عظيمــا .

* * *

**« ان حاسة الشم حاسة وقحة ، فهى لا تســأل صــاحبها رأيه فيما تشم ، بل تفرضـــه عليه فرضـــا شاء ذلك أو لم يشـــأ »**

( كانط )

وقد حدث ذات مرة ، وهو يتنقل من مسكن الى آخر بحثا عن الهــدوء والسكون ، أن توغل فى البحث حتى عثر على مسكن فى جهة نائيـــة . غير أنه ما لبث أن اكتشف أن هناك سجنا على مقربة من السكن ، وكان المساجين فى لحظات صفوهم يغنون بأصــوات عاليــة ويحدثون من الهرج والمرج ما يكفى لتقض مضجع الفيلسوف ويمنعه من الاستغراق فى تأملاته . فلجأ الى صديق له ذى نفوذ ، توسط له عند الشرطة لوضع حد لهــذا الهرج والمرج ، ولكن ذلك لم يتحقق بالصــورة التى أرادها ، غير أنهم أجبروا المساجين على اغلاق نوافذ زنزاناتهم حينما يريدون الغنــاء .

ولكن متاعب « كانط » مع الجــيران لم تقف عنــد هذا الحد فقد كان دائم الشكوى لأصدقائه من بعض الصــبية الذين كانوا يلقــون الحجارة على حديقة منزله ، وحينما رفع الأمر الى الشرطة أبلغوه أنهم لا يستطيعون منع الصبية طالمــا أن أحدا من المنزل لم يصب بجراح ، فغضب « كانط » وصاح قائلا : « اذن أنتم لا تستطيعون معاقبتهم الا بعد أن أصاب أو أقتل ! » .

وكان « كانط » بسيطا فى أثاث منزله . لم يكن أثاثه جميلا ولا فاخرا ، وانما كان نظيفا ، وكان يتكون من بضعة كراسى ومنضدة أو منضـــدتين مــن النوع المتواضع فى كل حجرة ، فقد كان لا يحتاج الى أكثر من ذلك .

وكان « كانط » لايميل الى الخروج من مسكنه ولا الى القيام برحلات أو قضاء العطلة فى المصايف كما يفعل غيره من العلماء أو رجال الأعمال . فقلما خرج عن الريف . بل لعله لم يذهب قط الى المدينة وهى على مقربة من محل سكنه .

ولعل أكثر ما يسترعى الانتباه فى شخصية « كانط » أنه لم يعرف عن انسان أنه كان يولى جسمه من العناية كما كان يفعل هذا الفيلسوف بالنسبة لجسمه وما يتعلق به .

والحقيقة أن هذا الاهتمام لم ينشأ من فراغ . فقد كان « كانط » يعتقد أن من المهم أن يطول عمر الانسان . وكان يحتفظ بقائمة لأطول السكان عمرا فى المدينة التى يقطن فيها ، وكان يشعر بالسعادة لأنه كان يتقدم فى هذه القائمة على حد قوله . وقد ظل مدير الشرطة يوافيه شهريا بحالات الوفاة التى تقع فى منطقة اختصاصه .

ومما يحكى عن الفيلسوف أنه حينما كان يسأل عن سنه كان يحسبها على أساس عيد ميلاده القادم . وهو بذلك يعبر عن رغبته فى أن يحيا حياة طويلة .

سبق أن أشرنا الى اهتمام « كانط » بصحته وغذائه وقد جعله ذلك يتمتع بمعدة قوية سليمة زمنا طويلا . غير أنه فى أخريات حياته أصبح لا يتحمل الطعام ، كما أن شهيته للأكل صارت ضعيفة الى درجة أنه لم يكن يميز بين الأطعمة المختلفة . ومما يروى عنه أنه شكا مرة من أن الكرنب الذى يأكله حلو جدا فى حين أنه كان يأكل برقوقا مسكرا .

لم يكن « كانط » فى حياته الاجتماعية يلتزم باتباع العرف والتقاليد وانما كانت تصرفاته تنبع من اقتناعه الشخصى ، فكان على سبيل المثال ، يعتقد أن الاستمتاع بالشرب يزيد اذا ابتلع الانسان هواء مع الشراب ، بحيث كان « كانط » يشرب وفمه مفتوح على سعته .

كان « كانط » يشكو فى أواخر أيامه من دائين : الأول : فى المعـدة ، والثانى : ثقل فى رأسه ، وكان يعزى هذه الآلام الى الكهرباء الموجودة فى الجو • وكان من الصعب ثنيه عن هذا التفكير •

وقد حاول « كانط » أن يعـالج نفسـه باحتساء شراب الروم غير أن ذلك سبب له التهابات فى معـدته •

كانت حاسة الشم عند « كانط » قوية الى درجة عالية ، كما هى الحـال عند الأشخاص الأذكياء • الا أن ذلك كان يضايقه فى بعض الأحيان • فـكان يقول عن حاسة الشم « انها حاسة وقحة لا تسأل الانسان رأيه فيما تشـم بل تفرضه عليه فرضا شاء أو لم يشأ » •

وبمناسبة الروائح ، لم يكن « كانط » يهتم بالأزهار ولا عطورها ، فلم ير قط حاملا زهرة ولم يشاهد فى بيته وعاء من الأزهار •

وبالرغم من ظلام عينه اليسرى ، ظل بصر « كانط » قويا ، وكان يقرأ بلا نظارة حتى الخطوط الرديئة •

غير أنه فى أخريات حيـاته ضعف بصره بحيث انه كان لا يرى ملعقتـه وشوكته على المـائدة • بل لم يكن يرى الطعام الذى يقدم اليه • وقد جعله ذلك يحمل على الطباعين اذا قرأ نصـا مطبوعا بشكل غير واضح ، وكان يزعم أن الطباعين فعلوا ذلك عن قصد حتى لا يتمكن هو من قراءة ( بروفات ) كتبه •

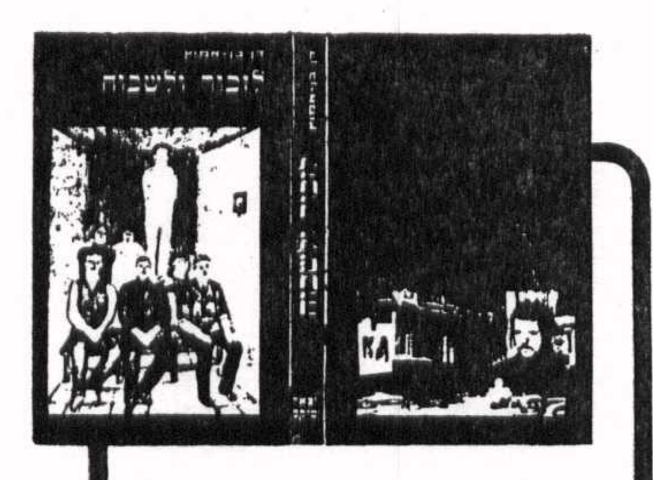
ومن عجيب ما يروى عن « كانط » أنه كان يردد دائما أنه بلا أرداف • فكان يجلس على كرسى مرتفع موسد ( منجد ) وبعد موته تبين أن فخـذيه لا تحتويان الا على العظام والجلد دون عضلات •

فى أواخر أيامه أصبح « كانط » يتنقل بصعوبة بين حجـرات بيته ، وفى العام الأخير من حياته ، لزم حجرة مكتبه ولم يغادرها ، بعد أن تحولت الى حجرة طعام وغرفة للنـوم •

سبق أن قلنا ان « كانط » كان ينام سبع ساعات فى الليلة دفعة واحدة . ولم يكن ينام فى النهار ، بل كان يعتبر نوم الظهيرة دليلا على الكسل . أما فى أواخر أيامه ، فقد كان النعاس يغلبه منذ الثامنة صباحا ، ويستمر حتى وقت الظهيرة . ولم يعد يحكمه نظام معين فى صحوه أو منامه . فأصبح ينام بعد الغذاء ويصحو فى الليلة أكثر من عشرين مرة دون هدف معين .

قبل موته بعدة أسابيع ، فقد « كانط » الوعى على حين غرة ، وأصبح يتلجلج فى الكلام كأنما أصيب بشلل فى لسانه ، وكان يردد دائما اسمى صديقين معينين من أصدقائه ، وحينما كان بعضهم يحدثه بصوت مرتفع فى أذنه ، كان « كانط » لا يجيب الا مرددا هذين الاسمين .

مات « كانط » ميتة هادئة بلا ألم ولا عذاب فى ١٢ فبراير ١٨٠٤م ، ولم يلحظ من شاهدوا موته أى عنف أو حدة فى انفصال روحه عن جسده الا أن الواقع هو أن روحه انفصلت عن عالمنا الأرضى بلا عناء ولا ألم وكأنها كانت تتوق الى عالم آخر من الهدوء والسكون ، ذلك السكون الذى افتقده « كانط » على أرض البشر .






## التمزق الإسرائيلى من الداخل

**للكاتب الاسرائيلى : دان بين ـ أموتز**

الجحيم ليس هو العنوان العبرى للكتاب، ولكن العنوان الحقيقى يتضمن عبارة قد يعاقب القانون على نشرها بتهمة خدش الحياء العام ، ولكنه ـ العنوان ـ يعبر عن ازدراء الكاتب دان بين ـ أموتز بالمؤسسة العسكرية الاسرائيلية ورفضه العنيف لافكارها ومخططاتها • ونرجو ان يعذرنا القراء اذا كنا قد تجنبنا ترجمة العنوان الاصلى تادبا ، لكننا نرجو ايضا ان يكونوا قد فهموا المقصود منه •

**الجحيـــم : التمـــزق الاسرائيلى من الداخل**

**تأليف الكاتب الاسرائيلى : دان بين آموتز**

تدور مؤلفات هذا الكاتب حول الصراع العربى الاسرائيلى بوجه عام ، وحـــول الوجـــود الاسرائيلى نفســـه بوجـــه خاص • واذا كان بين آموتز لا يعارض فى اقامة دولة اسرائيل ، الا أنه لا يؤيد حكومتـــه فى كثـــير من مواقفها : فهو مثلا ممن يطالبون باعادة الأراضى المحتلة الى أصحابها العرب الأمر الذى أثار ضده المتطرفين من جهة وعرضه لضغوط معينـــة من جـــانب الدولة ، وبالذات دايان الذى كانت تربطه بالكاتب كراهية سافرة بلغت حداً جعل بين آموتز يرفض الاشتراك فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ م • ولمنع اراقة ماء الوجه ، أصدر دايان قرارا بمنع الكاتب من الاشتراك فى الحرب •

وكان من الطبيعى أن تؤثر هذه الظروف التى يعيشها الكاتب على انتاجه وعلى تداول مؤلفاته داخل وخارج اسرائيل ، وكذلك على ترجمتها الى اللغات الأخرى •

وتقول الموسوعة اليهودية فى مجلدها الرابع تحت مادة « بين آموتز ، دان » أن الكاتب ولد فى بولندا عام ١٩٢٣ م ولكن الذى لا تقوله الموسوعة هو أن « بين آموتز » لايصرح باسمه الحقيقى الذى ولد به ، فالاسم الذى يحمله الآن اسرائيلى وليس بولنديا ، كذلك تغفل الموسوعة ، وهذا ما عرفناه أخيرا خلال وجودنا فى ايطاليا أن الكاتب كان فى ايطاليا عام ١٩٤٨ م ، وتم القبض عليه بتهمة تهريب السلاح لحساب الهجاناة فى فلسطين ، ثم ألقى به فى السجن ولم يعد الى فلسطين الا بعد انتهاء حرب ١٩٤٨ م • كما أنه عمل مراسلا عسكريا

فى حربى ٥٦ ، ١٩٦٧ م • وبعد ذلك بدأ يكتب القصص القصيرة ثم عكف على تقديم بعض الندوات العسكرية من الاذاعة الاسرائيلية•ومن خلال هذه الندوات بدأت معارضته الشديدة للحكومة على الهواء وفى الصحف • ومن مواقفه التى أعلنها خلال المحاولة التى كانت تبذل للفصل بين القوات أن أى اتفـاق مـع العـرب خـير من لا شىء •

تقع أحداث الرواية ، وهى أقرب الى معنى الرواية فى اللغة العربيـة ، بعد حرب ١٩٦٧ م وقبل حرب ٧٣ فهى تؤرخ لفترة ما بين الحـربين ، حيث كانت اسرائيل تعيش انتصارها الثالث والأخير •

ويقع الكتاب فى حوالى ثلاثمائة صفحة فى الطبعة العبرية • ويقسـمه المؤلف الى ثلاثة أجزاء ، الا أننا نجد من الأوفق عرضه فى جزأين • الأول يمكن أن نطلق عليه « ما قبل المأساة — والثانى ما بعد المأساة » واذا كانت المأساة هنا هى مأساة بطل الرواية « راف » الذى يتقمصه المؤلف ، الا أننـا لا نلبث أن ندرك أنها مأساة شعب بأسره • والمؤلف لا يحاول اخفاء ذلك ، بل على العكس ، يصرح به حينا ويصرخ به فى أغلب الأحيان •

وتدور الأحداث حول شاب يصاب أثناء حرب الاستنزاف فى عملية ضد الفدائيين ، اصابة ينتج عنها شلل نصفى ، الأمر الذى أفسد عليه حياته وحياة ذويه حتى أنه يفضل الموت •

**١ — قبل المأساة : اليوم خمر وغدا أمر :**

فى الجزء الأول ، والذى تعارفنا على تسميته « ما قبل المـأساة » يعرض المؤلف من خلال علاقاته بأصدقائه للحياة التى يحياها الشبان فى اسرائيل ، ومن المفروض أنها منتصرة ، غير أنها حياة أبعد ما تكون عن حياة شـعب منتصر ، أو بمعنى أصـح ، جدير بالانتصـار : مسكرات ، ومكيفـات ، نساء ، شذوذ أخلاقى •••• وكل ما حوى قاموس الفساد والعربدة والفجور •

ليس ذلك احتفالا بالانتصار وانما ، وكما يقولها البطل « كنا ونحن ما نزال فى المدرسة ، ندرك تماما أنه لا مفر من ارسالنا الى جبهة القتال فى يـوم مـن الأيام ... » لا مفر من ذلك ... انه القدر « كل شاب يدرك تماما أن الدائرة ستدور عليه لا محالة » اذن فليتنعم بيومه قبل فوات الأوان .

ويلخص المؤلف حياته تلك ، وهو فى ذلك يعبر عن واقع جيل بأسره : « أردت أن أحتسى الحياة حتى الثمالة .... قبـل أن ألتحق بالخدمة العسكرية ... قبل أن تظهر صورتى فى باب الوفيات فى احدى الصحف ... وليذهب الجميع الى الجحيم أرضاهم ذلك أم أسخطهم ... » وقد حملت معى أكداســا من جميع أصناف « الكيف » ... أنام متأخرا ، وأفيق عندما يحلو لى .. مع كل فتيـات المدينـة ، الشقراوات والسمراوات الزميلات والغريبات ، المتزوجات والآنسات والمطلقات ، الأرامل والشابات والناضجات ... قبـل أن أدرج فى « جمعية الموتى » أو « المأسوف عليهم » وامعانا فى هذه الحياة يفضل صاحبنا أن يعيش بعيدا عن أهله ، والديه الشيخين . وهما من جانبهما يحاولان جهدهما استبقاءه ويبديان استعدادهما لتحقيق كل رغباته ، حتى الفتيات لا مانع من اصطحابهن الى البيت اذا شاء . ولكن دون جدوى . فهو عازم على المضى فى طريقه الذى رسمه ، والذى يتمثل فى هذه الصرخة التى يطلقها لتفزع الشيخين : « اسمعوا ! انه آخر صيف لى ... وأريد أن أعمل كل ما تتوق اليه نفسى ... دعـونى » .

### وكـر الشـيطان :

« يرمى » هو أعز أصدقاء « رافى » بل هو معبوده الذى لا يكف عـن الثناء عليه وامتداح خصاله . ففى بيت هذا الصديق قابل أغلب الفتيات اللاتى تعرف اليهن فى ذلك الصيف . ولنتركه يقدم لنا هذا البيت : « الواقع انه كان أكثر من بيت للسكنى . كان ناديا ، ومطعما ومحطـة . منزل لقـاء وسينما ومدرسة . نعم مدرسة على الأقل فى ذلك العصر . كان أهـم مدرسـة اختلفت اليهـا ... هنـاك ، وفى خلال شـهرين فقط ، تعلمت من الانجليزية أكثر مما تعلمته طوال فترة الدراسة الثانوية » .

ولكن عند « يرمى » لا يتحدثون الانجليزية وحسب ، بل يتحـدثون الفرنسية والهولندية والسويدية « أمم متحدة مصغرة » هيبيز من القـدس ، ومن ايلات ، ومن شتى أنحاء البلاد • طلاب وفنانون وصعاليك ، ومانيـكانات وموظفات • وفى كل يوم حفلة ، كل يوم شىء جديد • وقد أطلق يرمى على حفلاته اسم « الزيجات » • وهو لا يصادف فى طريقه صديقا الا دعاه الى حفلة زواج الليلة ، وطلب منه أن يحضر معه فتاته •

وأكثر ما يعجبه فى صديقه انه « لا يعيش الا اللحظة الراهنة ، على أكثر تقدير يوما بيوم » • « واذا ما سألته عما سيعمل بعد يومين مثلا ، نظر اليك مشدوها دون أن يدرك ماتريد • وكأنك مجنون • فكيف يمكن أن يعرف ماسيصنعه بعد يومين ، اذا كان لا يدرى ما سيصنعه فى مساء يومه » •

ومما يثير اعجابه فى صديقه الذى يطلق عليه خير أستاذ درست عليه فى حياتى ، مناقشاته المثيرة وآراؤه الجديدة • فهو مثلا لا يجد غضاضة فى القتل أو السرقة أو الانتحار ، أو فى قيام علاقة بين رجلين أو فى تحرر المرأة • كذلك فما أمهره فى شئون النساء • وهو لا يفرق بينهن لا فى الدين ولا فى الجنس ولا فى الأصل ، ولا حتى فى السن • بل ولا يهمه الجمـال • يغازلهن جميعـا حيثما صادفهن • فى الشارع فى المقهى عند البقال • فى الحافلة • كذلك لا يهمه ان مالت صـديقته لشخص آخر • وأكثر من ذلك فهـو يدعوهما الى ذلك ويشجعهما عليه • وينتهز الكاتب هذه الفرصة ليستعرض غرامياته ، وقائمـة الفتيات اللاتى تعرف اليهن ، والمناسبات التى جمعته بكل منهن ، وكيف بدأت علاقته بكل واحدة • وماذا كانت ترتدى ، وماذا دار بينهما من حديث • وهن كثيرات لا يحصى لهن عددا • ففى بيت صديقه « اذا ذهبت واحدة جاءت غيرها كثيرات • » كان الناس رجالا ونساء يتوافدون بلا انقطاع ، حتى أن أحدهم أطلق على البيت « المشاع الاجتماعى » أى أن الجميع يعيش مع الجميع ، والجميع يصنع للجميع كل ما يريده الجميع » •

**هــو العــرف الســائد :**

ولكن أين الشرطة من كل ذلك ؟ لقد اتخذ أهل الوكر كل احتيــاطاتهم ، خصوصا بسبب المخدرات ربما لأنها الممنوع الوحيــد • كانوا بالذات يخافون الشرطة • كان الباب حصينا ولا يفتح لأى طارق الا اذا تأكدوا من شخصيته • وكانوا يتوقعون دائما مباغتة المباحث الخاصة بمكافحة المخدرات • ولــذلك كانوا يحتاطون للأمر • فقبل فتح الباب ينظر الصديق المكلف بالمراقبة من العين السحرية ، فاذا كان الزائر شخصا غير معروف لهم أو مشكوكا فى أمره واستمر فى الطرق ، وحتى اذا لم يصح قائلا : « افتحوا الشرطة » يصيح الصــديق المراقب قائلا « اثنان وعشرون » وفى الحال يتم التخلص من المخدرات وأوراق السجائر ، والغليونات وأعقاب السجائر ، فيجمع كل ذلك فى دلو ينهال عليه الرمل ، ويلقى به من النافذة الى الحديقة خلف المنزل • ويعلق الكاتب عــلى هذا الأسلوب ساخرا « لسنا نحن مخترعى هذه الوسيلة ، وانما هى الطريقة المتبعة فى البلد كله » •

ثم ينبرى مدافعا عن المخدرات ، ويحنق على أخيه لأنه غير مدمن •

**« نـــيرا » والخصوصيات بعد العموميــات :**

بعد هذه العموميات التى تصور « الجو » الذى يعيش فيه الشبان داخل اسرائيل ، تأتى علاقة « راف » بنيرا ، الفتاة التى صــادفها على الطريق ، تأتى هذه العلاقة لتكمل لنا الصورة بالخصوصيات •ولعل الاستطراد قليلا فى هذه العلاقة من ناحية وعلاقته بأهله من ناحية أخرى ، يكمل لنا صورة الحياة داخل اسرائيل ، باضافة جانب العلاقات الأسرية بعد أن اســتعرض حيــاة الشبان خارج نطاق الأسرة •

كانت نظرة فعلاقة ، فاقتراح ، بالاقامة معهفى حجرته التى اســتأجرها بعيدا عن أهله • « فقبلت من فورها فرحة سعيدة ••• ولكنها أضافت أنهــا

غير واثقة من أنها ستستطيع أن تقضى معه كل ليلة ، خشية أن يسبب لها أهلها بعض المضايقات • ولكن الذى تستطيع أن تؤكده هو أنها يمكن أن تبيت عنده من آن لآخر » وقـد اتفقت تلك الفترة مع اسـتدعائه فى الجيش ، فكان يتعجل الحصول على تصريح الخروج الأسبوعى حتى يراها • « والغريب أنه لم يفكر فى زيارة أهله ، بل ولم يحاول أن يكتب اليهـم فى حين أنه كان يـكتب لنـيرا ويصارحها بما يدور فى المعسكر وعما يصادف من سخافات الرؤساء » • ومن الطبيعى اننى لم أكن أستطيع أن أكتب كل شىء فكنت أتحمل على مضض حتى أخرج « وما أن حصل على التصريح ، حتى أسرع الى حجرته فوق السـطح متلهفا لرؤية نيرا وحينما لم يجدها قرر أن يستقل الطائرة ليسـافر اليها فى ايـلات » •

وليكلف ذلك ما يكلف من النفقات ، مع أنه غـير واثق من وجودها عنـد أهلها • فيهتدى الى فكرة وهى أن يتصل بوالدها فى صيدليته • فيخبره هـذا أنها ذهبت لقضاء الليل عند صديقة لها لا يعرف اسمها ولا عنوانها • هنا فقط يغير رأيه ويذهب لقضـاء الليل عنـد أهله ، ليس شـوقا اليهم ، وانما لأنه لا يستطيع قضـاء الليـل فى حجرته من غير نيرا • وقضى الوقت معهما على مضض • ضيقا بما يبديان نحوه من نبل العواطف وشديد الحب حتى أنه يتندر على أمه ساردا بعض مظاهر هذا الحب خصوصا اذا اصطحب فتاة الى البيت بحجـة الدراسـة معـا •

وهو ينفر من أبيـه لما يقص عليـه من آيات البطولة الزائفة ، خصوصا حينما يدعى له أنه أصيب بالتسمم من عملية ضد الفدائيين ، فى حين أنه أصيب به وهو فى عقر داره •

وهنا يفيض به الكيل من سخافات والده ، ويكيل له السباب ، وهو لا يسمع شيئا أو يدعى ذلك ، وحينما يتدخل الأخ الأكبر ويصفعه على وجهه ، تنشب معركة بين الشقيقين •

الجيش ، كان معبوده المقدس .. ثم ؟

فى البداية كان « راف » شديد التعلق « بجيش الدفاع » واستمر ذلك ستة أشهر .

« كان بالنسبة لى أشبه بالعقار المخدر ، كان عالمى الصغير المنظم فى أدق دقائق الأمور ، وكان مجرد الشعور بأننى أنتمى الى هذا الجهاز الضخم ، الذى يعمل بمنتهى الدقة وبأقصى الفاعلية ، يمنحنى احساسا غريبا بالرضا والسعادة بل لقد فكرت فى الاستمرار فى الجيش ، ولكن شيئا فشيئا ، بدأت أتساءل ، وبدأت الشكوك تدب فى صدرى . لماذا ؟ » شاهد مرة ابادة أحد المنازل فى احدى القرى العربية ( فقد وجدوا فى المنزل بعض الأسلحة ) كانت تلك أول مرة بالنسبة لى لم يتحرك لى ساكن . وتقبلت الأمر على أنه عملية انتقام طبيعية . ولكننى لم استطع أن أمحو من خيالى تلك الصورة التى أصبحت تؤرقنى على الدوام : وهى صورة الأسرة المنكوبة وهى تجلو عن القرية ، مع جميع سكانها ، تاركة وراءها المنزل ، ذلك المنزل الذى كان قبل دقيقة واحدة منزلها بشرفته وستائره التى كانت تتماوج من النافذة ، والذى لم يعد الآن ، وبعد دقيقة واحدة سوى كومة من الحجارة وسط سحابة من الغبار . وما لبثت صور أخرى أن تتباعت ، اتضاف الى هذه الصورة تذكرنى كلها بعمليات العنف التى تنفذها جيوش أخرى فى مناطق أخرى » .

ثم يتعجب الكاتب لأن مثل هذه العمليات لا تتعرض لها الصحف بقدر ما تتحدث عن تصريحات رئيس الوزارة ووزير الدفاع معلنة أن « رغبتنا الصادقة فى اقامة سلام دائم واجراء مفاوضات مباشرة دون شروط سابقة » « كل ذلك نفرنى شيئا فشيئا من الجيش » .

وتشاركه « نيرا » صديقته فى هذ السخط على الجيش . فحينما « يفرغ أمامها ما تراكم على صدره ، تقفز نحوه وتقبله فخورة به » « هنالك فقط أدركت أن الكيل قـد فاض بها هى أيضا » وفى موضع آخر يلخص « راف » موقفه

من الجيش فى هذه العبارات « لقد فاض بى من هذا الجيش ومن كل هؤلاء الرؤساء الذين يدفعون بالجنود كاللعب الى ألغام الديناميت التى لا يخرجون منها .... لابد من أحد ليغلق الى الأبد هذا الصنبور من الحقد والكراهية ، والرعب والدماء » .

ورغم كل ذلك ، فقد كانت تلك الفترة بالنسبة لرافى أجمل أيام حياته ، وذلك بسبب علاقته بنيرا . فقد عاش معها فى سعادة غامرة ، كل أجازة أسبوعية فى مكان مختلف . ولكن فجأة ينتهى كل شىء .

**٢ — بعد المأساة : الاصابة ويقظة الضمير :**

فى احدى العمليات ضد جماعة من الفدائيين ، يصاب رافى برصاصة تخترق رئتيه وتنفذ من العمود الفقرى فينتج عنها شلل نصفى للأطراف السفلى . وتفصيل الحادثة أن الفدائيين كانوا يختبئون فىمغارة ، فباغتتهم وحدة من المظليين الاسرائيليين وحاصرتهم داخل المغارة ، ثم طلب قائدهم من أحد الجنود أن يصيح بالعربية طالبا من الفدائيين الخروج وتسليم أنفسهم واعدا اياهم بحسن المعاملة . ومرت لحظات دون اجابة . ثم فوجىء قائد الوحدة « برافى » ينهض ويقترب منه هامسا له بشىء فى أذنه . وعندئذ انطلقت رصاصة من داخل المغارة أصابته ، فيأمر رئيس الوحـــدة بابادة كل من فى المغـــارة فلم يخرج منها أحـــد .

بعد ذلك نعرف أن سبب نهوض رافى المفاجىء ، أنه سمع صوت طفـــل فى المغـــارة . فهذا زميله « موليك » يروى عنه قائلا : « قال لى انه لم يشأ أن يطلق النار جزافا داخل المغارة لأنه سمع صوت أطفال » ثم يعقب زميله قائلا : « هى حيلتهم المفضلة التى يستعملونها دائما : يتحصنون وراء النساء والأطفال » ثم يتعجب موليك من موقف رافى الذى « لم يكن قبل ذلك متعاطفا مع العرب ، ولم يكن لديه أية مشكلات من هذا القبيل » وهذا دادى زميل آخر . يتحدث عن هذا التحول فى موقفه من العرب :

« شاهدته على النقالة ، بعد اصابته بنصف ساعة ، فى انتظار اجلائه . وتبادلت معه الحديث . كان فى تمام وعيه وادراكه . قال لى انه لم يكن من الضرورى أن يطلقوا الرصاص على الأطفال . كان من الممكن أن ينتظروا لأنهم كانوا سيستسلمون فى النهاية ، ولم أفهم عما كان يتحدث . لقد حدث له شىء فى تلك الأيام الأخيرة . فقد لاحظت عليه بعض التحولات قبـل اصابته بعـدة أسابيع ، دون أن أدرك كنهها . ولم يكن هو وحده الذى يتساءل « ما نهـاية كل ذلك ؟ » ولم يعد فخورا كما كان . وكان جل وقته كئيبا . وقـد سألته عدة مرات عما حدث، فكان يتجنب الرد على أسئلتى ....

« على أية حال لم يعد كما كنا نعرفه . كان يحارب ولكن بلا حماسة . وحينما لا يكون الجندى مقتنعا بالقضـية التى يحارب من أجلها ، فانه يكون كالمجروح ولابد من سحبه » .

الا أن أغرب رواية هى تلك التى نقلها « موليك » وأعجب ما فى الأمر أنه لم يكن هناك أطفال داخل المغارة « لقد خيل اليه فقط أنه سمع أصوات أطفال . ولم اقل له ذلك ، حتى لا أزيده هما على هم » .

ولعل أهم تعليق على هذه الاصابة هو ما صدر عن والده : « اننى لا أشكو ولا أتبرم ، فهى الثمن الباهظ الذى ندفعه ولكن علينا ألا ننسى أن الحرب لم تنته فى عام ١٩٦٧م انها مستمرة وعلينا أن ندرك أنها سوف تستمر لسنوات أخرى ، لأننا نحارب من أجل وجودنا » .

ولا يستطيع الوالد أن يقدم لابنه من العزاء والسلوى الا الكلام ، ولعل فى قوله راحة لمن هم على شاكلة الابن : « كان من الممكن ألا تكون نصف مشلول فقط . وانما بالاضافة الى ذلك ، تفقد نور عينيك . وتصور حينئذ أنك لن ترى الأشجار والأزهار والسماء والألوان ، ولا وجه نيرا ، وكان من الممكن أن تفقد السمع أيضا . وعندئذ لا « موزار » ولا بيتلز ، ولا شدو الطيور ولا حفيف الأشجار ، ولا المذياع . وكان من الممكن أيضا أن يكون شللك كاملا ، وعندئذ

يجب اطعامك كالطفل الرضيع . أنت الآن على الأقل بنصف ينبض بالحياة ... النصـف الذى يضم آلة التفكير . فبخيالك تستطيع أن تجرى وتقفز وتبلغ الأماكن التى لن تستطيع الانسانية بلوغها ولو بعد آلاف السنين . ولديك يدان بهما تستطيع أن ترسم وتكتب وتصور . ولك أذنان اذا فتحتهما تستطيع أن تسمع ما لا يستطيع أن يسمعه ذوو السيقان السليمة . ولك فم تستطيع به أن تقـول ما تريد . أهم من ذلك كله ، أن تتصالح مع نفسك ، وتتراضى معها . ذلك خير لك من كل نصائح الوجود » ولكن « راف » لا يريد الا أن يموت ويطلب من والده الانصراف .

## محاولات لقهر العجز :

حاول راف أن يتغلب على المصاب . من ذلك أنه قرأ مرة فى احدى الصحف أن بعض الحشرات حين تفقد أحد أطرافها ، فانها تستولد بدلا منهـا أطرافا جديدة وفى فترة وجيزة . فيقرر أن يجرى التجارب ، أولا ليسلى نفسه ، ولكن الأمر الذى لا يلبث أن يصبح جادا . فقد بدأ يصطاد الفراش والجراد والسحالى وقـد ساعده فى ذلك زملاؤه من الجرحى ، ثم ينزع أطرافها أو ذيولها ، ويضعها فى علب قريبا من فراشه ثم يقوم كل يوم بتسجيل ملاحظاته عما يطرأ عليها من تغييرات .

ولكن « راف » لا يلبث أن ينصرف عن هذه الهواية ، ليعود الى هوايتـه القديمة فى التصوير ، فهو مصور ماهر غير أنه يقتصر الآن على تجميع صـور مشوهى الحرب ، وهو يلتقط لهم الصور المنفرة والتى تظهر الآخرين وهم فى حالة تقزز أو نفور . وهكذا جعل من هذه العملية شغله الشاغل فى المستشفى ، فهو كل يوم يتصفح الجرائد ويقص منها الصور ثم يقوم بتصنيفها فى مظاريف : القاء قنابل — رصاصات طائشة — معارك — كوارث . ثم راح يطلب من أهله وزملائه أن يزودوه بالجرائد القديمة .

وهو لا يقف عند حد جمع الصور وتصنيفها بل انه يفكر فى جمعها فى «ألبوم» على أمل أن تقوم وزارة الدفاع بطبعه ونشره . وتوضح له زوج أخيه استحالة

مثل هذا المشروع ، أولا ، لأن الدولة لا تريد أن تضعف الروح المعنوية عند الشعب ، ثانيا ، لأن الناس أنفسهم لا يحبون رؤية المشوهين عن قرب ، لأن ذلك يشعرهم بالذنب •

« هل تتصور أن أحدا يمكن أن يشترى ألبومك هذا ليقدمه هدية لأسرة ابنها فى الجيش أو لشاب على وشك الاستدعاء » •

ولكنه يصر على رأيه ، ويستمر فى ممارسة الهواية ، بل انه يتخيل جمهور المتفرجين وهو يدعوهم الى مشاهدة الألبوم : « اقتربوا أيها السيدات والسادة ، اقتربوا أكثر وأكثر • هذا ما يعدوننا به ولسوف يكثر عددنا حتى نشكل حزبا ونحتل مكانا فى البرلمـــان ، ان منظمة المشوهين تبلغ الآن عشرة آلاف عضو • وانا لم نمت • وهذا ما يؤسف له ، ولكنه فى الواقع ، نحن على قيد الحياة ، وهذا ما أريد أن أقوله فى هذا الألبوم » • ثم يرتجل مقدمة للألبوم : « أيها السيدات والسادة هكذا سيكون مصير أبنائكم خلال عام أو عامين • هذا ألبوم المستقبل الأسود ، تصوير المرحوم رافى ليفين » •

واذا كان له أن يختار طريقة لتخليد ذكراه غير الألبوم ، فهى أن يقوم أبوه من بعده بفتح بيت باسمه للمشوهين فى مركز التأهيل بالمستشفى ، وهو يقترح أن يوضـــع فوق كل سرير صورته بين صورتى جولدا مائير ودايان • وهو يرى أن هذا المشروع أفيد للمشوهين من كل الأدوية والعقاقير • وهو خير من كل عمليات تخليد الشهداء التى تقوم بها الدولة ، « هذه الدولة العاهر ليست سوى تذكار كبير » ( لا أعتقد أن دولة فى العالم يشغلها الخلود كما يشغل اسرائيل ، فنحن نخلد الذين سقطوا فى ساحات القتال ، ونخلد ذكرى الكوارث والانتصارات والمعارك والحروب وعصور الرخاء والقحط ومولد العظام ووفاتهم ••• ان الخلود يشغلنا ٣٦٥ يوما فى الســـنة بل ان هنـــاك متخصصين لهذه العملية ، هؤلاء المتخصصون يقضون وقتهم فى تحرير الرسائل التى يبعثون بها الى المؤسسات اليهودية فى الولايات المتحدة يقترحون عليها مشروعات للتخليد •

عجز مفيـــد :

تحت هذا العنوان الساخر يعدد الكاتب المزايا التى تمنحها الدولة للمصابين فى الحروب تشجيعا للشبان على الاشتراك فيها ، وهذه المزايا يتضمنها كتيب « تعويض مشوهى الحرب » الصادر عن وزارة الدفاع •

سيارة طبية : المصاب بالشلل أو مبتور الساقين يحصل على سيارة طبية خاصة مكيفة تبعا لحالته •• •وتكون ملكا للدولة ويكون المصاب مسئولا عن صيانتها ، ويمنح بدل صيانة لمسافة ١٥٠٠ كم فى الشهر •

ــ يحصل المصاب على دروس فى القيادة ، أما العاجز الذى لا يستطيع القيادة بنفسه فيمنح سيارة يقودها له قريب يسكن معه •

ــ للعاجز الحق فى كرسيين متحركين ، وفى بعض الحالات له الحق فى كرسى ثالث •

ــ السكن ــ يوضع تحت تصرف العاجز سكن خاص مناسب ، ويمنح اذا شاء ، قرضا لشرائه •

ــ بدل تدفئة ــ العاجز الحق فى بدل تدفئة يصل الى ٨٠ ليرة فى الشهر •

ــ أدوات منزلية ــ عند تركه المستشفى • يمنح العاجز الأدوات المنزلية الآتية :

× ثلاجة كهربائية ــ صناعة محلية سعة ٧٫٥ قدم •

× غسالة صناعة محلية تستبدل كل ست سنوات •

× مكيف هواء صناعة محلية به جهاز للتدفئة •

× منحة تبلغ ألف ليرة لشراء الأثاث •

× سرير ماركة « بولر » أو سرير آخر بالقيمة نفسها •

× منحة لشراء الملاءات والمفروشات تصل الى ٧٠٠ ليرة •

× ملابس قيمتها ٢٢٥ ليرة ابتداء من السنة الثانية •

— بدل اصطحاب : للعاجز المصاب بشلل نصفى الحق فى بدل اصطحاب شهرى يبلغ ٢٧٠ ليرة اذا كان أعزب و ١٧٠ ليرة اذا كان متزوجا •

— للمصاب بشلل نصفى ، بالاضافة الى ذراع واحدة الحق فى بدل اصطحاب شهرى يصل الى ٤٥٠ ليرة اذا كان أعزب و ٣٦٠ ليرة اذا كان متزوجا •

— معاش شهرى : يحدد على أساس مرتب موظف من الدرجة الثامنة •

— منحة خاصة : للمصاب بشلل تصل نسبته الى ١٠٠٪ الحق فى منحة شهرية تبلغ ١٥٪ من المعـاش الشهرى بحـد أقصى مرتب جنـدى احتياطى أى ١٥٠٠ ليرة •

هذا بالاضافة الى امتيازات أخرى كالاعفـاء من الضرائب على الأثاث والأدوات المنزليـة وتخفيف الضرائب على الدخول وضرائب البلدية وعوائد العقارات • كذلك يمنح العجزة بطاقات شراء مخفضة من محلات الجيش •

**لذلك فالموت أفضل ••**

ورغم ذلك ، فالعاجز حانق على الدولة كل الحنق لأنها تريد أن تتخلص منه حتى لاتتحمل كل هذه الأعباء ، ولافساح المكان لغيره فى المستشفيات « مت ولاتعد الينا — ليس لك مكان عندنا • فالمصابون الجدد فى انتظار سريرك • والذين لم يصابوا بعد فى انتظار الاصابة • لا يمكن ايقاف الآلة • ففى وادى الأردن ، وعلى شواطىء القنـاة ، وفى الطرق ، يزحفون بلا أذرع وبلا سيقان نحـو المستشفى » •

انها تتمنى لهم الموت ، فهم عبء على الميزانية وعلى الضمائر ، وعلى ذويهم أيضا — « الموت نعم ، أما العجز فلا • لسبب بسيط ، وهو أن الموت لا يكلفنا كثيرا • أنت عبء على الدولة ، أيها القعيد — أنت عبء ثقيل على ميزانية وزارة

الدفاع . أنت عبء على الخزانة ، عبء على الضمائر . لقد علمناك أن « تموت فى سبيل الوطن » أن تموت . ولم نعلمك أن « تصاب فى سبيل الوطن » أو أن « تعجز فى سبيل الوطن » كان عليك أن تدرك المقصود ، المستتر ، وألا تعود من ساحة القتال بهذه الحالة ، اذهب ، اغرب عن وجوهنا ، مت . ألم تسمع بهذه العبارة الحلوة ؟ « لم يعد له وجود » ذلك كان يجب عليك أن تكونه الآن : « واحد لم يعد له وجود » .

وبذلك تحفظ لك الدولة هذا الصنيع ، حتى أسرتك ، يا صاحبى تشكرك ، اذا أنت قضيت ولم تعد اليها فى هذه الحالة . هل تدرك ما تسببه لها الآن . انك تثقل عليهم ، تنفرهم وتقززهم ، أكل وشرب وعناية وضرائب بسببك . اسرع عجل بالموت ترح الجميع » .

## لعبـــة الحرب :

واذا كانت الدولة تثير حنقه ، فالأسباب حول لعبة الحرب واستغلالها من جانب المسئولين ، ففى الحرب حياة اسرائيل وهى تدرك جيدا أن « الحرب هدية من الله » « فاذا لم نكن محاطين بكل هؤلاء الأعداء لكان علينـــا أن نخترعهم « .... » الحمد لله الذى قضى علينا بالحرب « ... » من حسن حظنا أننا لم يكتب لنا أن نعيش فى سلام مع العرب « واذا كانوا لا يعترفون صراحة بذلك ، وذلك هو تفكيرهم جميعا : وزير الدفاع ، ووزير التربيـــة ، ورئيس الوزراء » . بسبب العرب فقط ، استطعنا أن نجعل من هذه الأشتات التى وفدت من سائر أركان الدنيا ، شعبا ، شعبا كغيره من الشعوب ، له لغته وله ثقافته وله نشيده الوطنى ، وله علمه وكل ما خلا ذلك من المظاهر الخارجية للدولة ذات السيادة » .

ثم يعلنها الكاتب صريحة ، ولكن فى مرارة ، « لو كان هؤلاء العرب السذج يتمتعون بشىء من الدهاء لفرضوا علينا السلام دون اهتمام بمشكلات الحدود . وانخلوا عن كل ما نريد : سيناء والجولان والضفة الغربية قائلين لنا : خذوا

كل ما تريدون اختنقوا بكل هذه الأراضى ورمالها وحجارتها • ولنقم السلام ، ولكن السلام الحقيقى : السلام على مدى قرنين أو ثلاثة قرون • لو فعل العرب ذلك لتمكنوا خلال عشرين أو ثلاثين عاما فقط من ابتلاعنا وتصفيتنا روحيا وثقافيا وحضاريا ، ولو فعلوا ذلك لمـا تبقى أثر من شعب اسرائيل — لكنهم سذج •

والكاتب لا يبالغ حينما يقول أن فى الحرب استمرارا لكيان اسرائيل ووجودها• فهو يرى أن فى الحرب محافظة على مناصب القادة أولا ، "لأنه فى اليوم الذى ينتهى فيه كل شىء ويسود السلام ، لا يصبح هناك معنى لوجودهم ، ثانيا ، « الدعاية » فحينما يقوم العرب بقصف احدى المستعمرات اليهودية ، فانهم يقدمون لنا أجل خدمة — فقتل جندى فى معركة ، لا يهم • أما صورة قذف منزل فى مستعمرة ، أو مقتل بقرة تظهر صورتها فى احدى الصحف ، خير دليل للعالم أجمع عن السبب الذى نحارب من أجله • أولا ، نحن نحارب دفاعا عن أنفسنا ، ثم أن حربنا شرعية "لأننا نريد أن نزرع الأرض • ونحن لا نريد الا أن نجنى قوتنا بعرق جباهنا ، لا نريد الا أن نصلح الصحراء • فلماذا يهاجموننا ؟ لماذا يرفضون يدنا الممدودة ؟

كذلك فهم يرســلون للاقامة على الحــدود أسرا شابة بأطفالها ، وذلك « حتى نطالب العرب بهذه الكيلومترات من الأرض عندما نجلس معهم حول مائدة المفاوضات » لسبب بسيط « وهو أننا لا يمكن أن نتنازل عن هذه الأراضى لأن أبناءنا رووها بدمائهم وقاموا باصلاحها وزراعتها » •

ومن ناحية أخرى فالحرب عامل هام فى توحيد الجبهة الداخلية ، الحرب فكرة عربية مفيدة على المستوى القومى ، حافز اقتصادى حيوى « فقتيل أو اثنان فى اليوم وبعض الجرحى هنا وهناك ، شىء جميل يحفز على زيادة المواليد ، ويعضد الوحدة الوطنية ، ويوحد الصفوف • ونشر مثل هذه الصور فى الصحف واقامة الجنازات الوطنية دليل للجميع على أنهم يواجهون خطرا واحدا » •

**أقراص الطيران :**

ويضيق بنفسه وبأهله وبالدولة « تلك العاهر » ولا يجـــد مفرا ، هو وصديقه « فوجيل » للهروب من هذا الواقع الأليم ، من تناول الأقراص التى يبدأ مفعولها بعد دقائق : « وسارا عدة خطوات ، ثم رفع فوجيل بصره نحو راف مستفسرا ، فابتسم له الآخر ، وربت ذراعه فى حنان بالغ • ثم ارتفعا عن الأرض وسبحا فى السماء « راف » دون كرسيه ، وقد تدلت ساقاه الميتتان وفوجيل بجانبه وقد انفرجت ذراعاه كجناحين • وما هى الا لحظات • حتى اعتليا المستشفى كالطيور وقد بدا لهما المبنى جزيرة صغيرة :

— فوجيل : نحن فى السماء •

— راف : أنا لا أستطيع السير ، لكن أستطيع الطيران ، نعم شىء بسيط كالأحلام •

— فوجيل : أنظر ، أنظر الى اسفل ، كل هذه الخرائب ، وكل هذا الدمار •

— راف : أرى ، أرى ، نحن نبتعد عن كل ذلك •

— فوجيل : ربما يكون هذا ممنوعا • ربما يمنع القانون أن نطير هكذا فى السماء •

— راف : أظن ذلك ، ولكن لا تهتم ، أنظر ها هو ذا البحر •••••


Borges
Conférences
folio essais
INEDIT

**JORGE LUIS BORGES**
**CONFERENCES — LE CAUCHEMAR**
**Gallimard, 1985**

## الكوابيس (١)

## للكاتب الأرجنتيني : جورج بورج

تقول المعاجم اللغوية ومنها ( لاروس ) و ( روبير ) ان كلمة INCUBUS وهى أصل كلمة ( كابوس ) فى العربية كما هو واضح ، من أصل لاتينى ، ومعناها روح شريرة ، أو شيطان ، ومؤنثها ( سوكوبا SUCCUBA ) •

ولكن قبل أن نخوض فى معنى الكابوس فى اللغات المختلفة ، نبدأ بالحديث عن الجنس قبل النوع ، ونقصد بالجنس هنا الأحلام لأن الكابوس نوع من جنس الأحلام •

* وأول حقيقة يجب أن نعترف بها فى هذ الصدد هى أن دراسة الأحلام من أصعب الدراسات التى تواجه المتخصصين وبالذات علماء النفس ، فنحن لا نستطيع أن نراقب أحلامنا بطريقة مباشرة ملموسة ، وحينما نتحدث عنها فانما نتحدث عما بقى منها بعد اليقظة ، أو بمعنى أصح عن ذكراها • ومن المحتمل جدا ألا تتفق هذه الذكرى مع حقيقة الحلم نفسه •

* أما الحقيقة الثانية فهى تناقض الدراسات والآراء فى هذا المجال ، ففى حين أن البعض ، ومنهم الكاتب الانجليزى ( سير توماس براون ) من القرن السابع عشر ، يقولون بأن الذكرى التى نحتفظ بها من أحلامنا تكون

(١) جورج بورج ، محاضرات ، غاليمار ، باريس ، ١٩٨٥ م •

ضعيفة جدا بالنسبة لواقع الحلم القوى ، فان البعض الآخر ، ومنهم الكاتب ( بورج ) مؤلف هذا الكتاب ، يرون أننا بروايتنا للأحلام نضــفى عليها قوة ليست فيهــا أصــلا .

والأحلام فى نظر هؤلاء ما هى الا عمل فنى من نسيج الخيال Fiction لا نفتأ ننسجه عند اليقظة ، ونكمل هذا النسيج حينما نقوم بروايته للآخرين .

ولعل أبرع من عبر عن حقيقة الحلم فى العصور القديمة ، وربما الحديثة أيضــا ، دون أن يقصــد الى ذلك ، هو الكاتب الايطالى ( سيفيرينو بوونتشى ) BOECE فى كتــابه ( حول عزاء الفلسفة ) ، هــذا الكاتب الذى كان شهيرا فى العصــور الوســطى ، وقرأه ( دانتى ) مرارا وتأثر به ، تصــور انســانا يشاهد سباقا للخيــول ، هــذا المشــاهد جــالس فى مــدرج المتفــرجين وينظر الى الخيول المتسابقة ، فى بــداية السباق ، وأثناء الســباق ، ثم فى نهــاية الســباق . كل ذلك فى صــور متلاحقة متتابعــة . غير أن الــكاتب بتخيــل مشاهدا آخر ، هو فى ذات الوقت يشــاهد المشــاهد الأول ، ويشاهد السباق أيضا . وهو الخالق تعالى . فالله تعالى يرى سباقنا كله ، يــراه فى لحظة خالدة ، يرى بداية السباق وخطوات السباق ولحظة الوصول .

يرى كل شىء فى نظرة واحدة شــاملة ، كما يرى تاريخ البشرية بأسرها ، فكما يرى المشاهد سباقنا كله فى جميع مراحله ( لكنه يرى ذلك متتابعــا ) فان الله تعالى يرى سباقنا كله ، من المهــد الى اللحد ، وهو يعرف مســبقا مصــيرنا النهــائى .

وهكذا فان الله تعالى يرى تاريخنــا كله ، تاريخ البشرية ، فى لحظــة هائلة ، رائعة ، هى الأزلية والأبدية ، هى الخلود .

ولكن ما عــلاقة ذلك بالأحلام ؟

فى كتابه بعنوان ( تجربة مع الزمن ) يتصور الكاتب الانجليزى المعاصر ( دون ) DUNNE كل شخص منا وهو يمتلك « نوعا من الخلود الشخصى

المتواضع » هذا الخلود المتواضع نتمتع به ، أو يتمتع به كل منا أثناء الليل ، فأنا فى هذه الليلة مثلا سأنام ، ثم أحلم أننا فى يوم الأربعاء ، أحلم بيــوم الأربعاء ، وباليوم التالى ، يوم الخميس ، وقــد أحلم بيوم الجمعــة أو بيوم الثلاثاء القادم • فكل انسان وهب جزءا ضئيلا من الخلود الشخصى يسمح له ، بالاطلاع على ماضيه القريب ومستقبله القريب •

كل ذلك يراه النائم فى نظرة واحدة ، كما يرى الله تعــالى العــالم كله بما فيه من أكوان • وعند اليقظة ، ماذا يحدث ؟

يحدث الآتى : نظرا لأننــا معتادون على الحياة فى صورتها المتتاليــة المتتابعة ، فاننا نضفى على الحلم شكلا سرديا قصصيا ، فى حــين أن الحــلم أشــياء كثيرة وقعت فى وقت واحد •

والمثال التالى يوضح الصورة • لنفترض أننى أرى فى الحلم رجــلا ، رجلا عاديا ، بعــد ذلك مباشرة أرى صورة شجرة ، ولكننى عنــد يقظتى ، أضفى على هذا الحلم البسيط ما يجعله معقدا :

فيمكن أن أتصور أننى رأيت فى الحلم رجلا يتحول الى شجرة ، أو رجلا كان شجرة • اننى بذلك أغير فى معطيات الحلم ، وأنسج حولها أو حوله خيوطا من الخيال ، كما يفعل الأطفال مع الواقع •

ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد ما ذهب اليه الكاتب الانجليزى FRAZER ( فرازير ) من أن الانسان البدائى لا يميز بين اليقظة والنعاس ، فالأحــلام بالنسبة له مرحلة من مراحل اليقظــة أو هى اســتمرار لهــا ، ومن ذلك أن الانسان البدائى حينما يحلم أنه ذهب الى الغابة وقتل أسدا ، فانه عنــدما يصحو من نومه يعتقد أن روحه غادرت جســده وأنهــا ذهبت الى الغــابة ، وقتلت الأسد فعــلا ، أو : اذا أردنا الدقة يمكن أن نتصــور أو نفترض أن روحه قتلت حلم الأسد • ومن الواضح أن هذا الاعتقاد يتفــق مع تصــور الأطفال الذين لا يفرقون بين اليقظة والحلم •

واذا انتقلنا الى مستوى آخر ، مستوى الشعر ، فليس من المستحيل أن اليقظة بالنسبة للشعراء ما هى الا حلم ، وهذا ما عبر عنه الكاتب المسرحى الأسبانى ( كالديرون ) فى مسرحيته الشهيرة ( الحياة حلم ) وهو أيضا ما ذهب اليه ( شكسبير ) اذ يقول فى احدى مسرحياته :

« اننا صنعنا من ذات المادة التى صيغت منها أحلامنا » ، وقد صاغ الشاعر النمسوى WALTER VON DER VOGELWEIDE هذه الحقيقة فى سؤال يعبر عن حيرته أمامها حينما قال : « ترانى كنت أحلم ، أم أن الحياة كانت حلما ؟ » •

وهذا يقودنا الى الاعتقاد بالوحدوية SOLIPSISME أى الى الاعتقاد بأن هناك كائنا واحدا — يحلم — وأن هذا الكائن الذى يحلم هو كل شخص منا ، هناك كائن واحد حالم ، وهذا الحالم يحلم بالعالم كله بكل أكوانه ، يحلم بالبشرية منذ نشأتها ، بل ويحلم أيضا بطفولته وشبابه • انه كل واحد منا ، لسنا جميعا ، وانما كل فرد منا • فالآن : أنا أحلم بأننى ألقى محاضرة فى شارع كذا ،وأحلم بأننى أحاول أن أعرض أفكارى ، وأننى أحلم بكم • كل واحد منكم يحلم بى ، ويحلم بالآخرين •

هناك طريقتان للحكم على الأشياء : الأولى : تعتبر أن الأحلام جزء من اليقظة ، والأخرى ، الطريقة المشرقة ، طريقة الشعراء ، ترى أن كل يقظة حلما •

والحقيقة أنه لا اختلاف بين النظرتين أو الحالتين • وهذا يؤيد ما ذهب اليه بعضهم من أنه ليس هناك اختلاف بين نشاطنا الذهنى ، فسواء كنا فى الحلم أم كنا فى حالة اليقظة ، فنشاطنا الذهنى واحد •

ولعل هذا أيضا يقودنا الى الحديث عما يعرف بالأحلام الحقيقية أو الأحلام النبوئية • وقد جاء فى ( الأوديسة ) أن هناك بابين ، أحدهما من عظام القرون ، والآخر من العاج ، ومن الباب العاجى تصل الناس

الأحلام الكاذبة ، ومن البـاب العظمى تصـلهم الأحلام الحقيقية • وكذلك فى ( الالياذة ) حيث يتحدث البطل مـع بعض الأرواح ، ثم يـرى شـبح أمـه ، ويحاول أن يحتضنها ، ولكن دون جدوى ، فهى شـبح • غير أنـه من ناحية أخرى ، يشاهد روما بعظمتها — روما التى سوف تنشـأ فيما بعد — ويشاهد ( رومولوس ) و ( روموس ) ، ويشاهد عظمة أغسطس ، وكل ما تصل اليه الامبراطورية الرومانية من أبهة ورفعة ومجد • وبعد أن يتحدث البطـل مع معاصرى ذلك الوقت وهم بالنسبة له لم يولدوا بعد ، يعود الى الأرض ، وهنا نلاحظ أنه يعود من الباب العـاجى ، وليس من الباب العظمى •

وتفسير ذلك أننا لسنا فى الواقع • فالبطـل يدخل من الباب العـاجى لأنه يدخل فى عالم الأحلام — أى ما نطلق عليه نحن اليقظة •

واذا انتقلنا الى النوع أى الى الكابوس بعـد الأحـلام ، نسـتأنف استعراضنا لأسمائه فى مختلف اللغات ، فنجد أنه فى اللغة الاغريقية يسـمى EFIALTES وهذا الاسم يطلق على الشـيطان الذى يسبب الكابوس وفى اللاتينية ، كما قلنـا فى البداية يطـلق عليـه INCUBUS وهـو الشـيطان الذى يضغط على النائم ، وأقرب أسماء الكابوس للاتينية الاسـم الايطالى INCUBO وهو فى الألمانية يسـمى ( ALP ) وهو يعطى أيضـا فكرة الشـيطان الذى يوحى بالـكابوس •

أما أعجب أسماء الكابوس فهو فى اللغـة الانجليزية ، حيث يطلق عليـه THE NIGHT MARE أو ( فرس الليل ) • وقد استعمله شكسبير بهذا المعنى حيث يقول فى أحد أبياته : I Meat The Nightmare

( قابلت فرس الليل ) ، وفى بيت آخر يؤكد ذلك المعنى حينمـا يقـول The Night Mare and her nine foals ( فرس الليل ومهورها التسعة ) ، حيث يطلق على الكابوس اسـم الفرس •

غير أن فقه اللغة يرى غير ذلك ، فالأصل ليس Night Mare

وانما Night mare أو Niht moere أى شيطان الليل •
وبذلك يكون الاسم الانجليزى ترجمــة للاغريقى Efialtes أو الــلاتينى incubus

ولكننا يمكن أيضا أن نجد للكلمة الانجليزية night mare أصــلا فى الألمــانية فى كلمــة Märchem أى خرافة أو أســطورة ، أو حكاية من حكايات الجنيات ، أو حكاية خيالية fiction ، وبذلك يــكون معنى Night mare هو حكاية الليل الخيالية •

وفى نهاية هــذا البحث فى أصــل الكلمــة ، نجــد الكلمــة الفرنســية Cauchemar التى تعنى الكابوس مأخوذة من الفرنسية القديمة ومعناها ( شــبح الليــل ) •

وكما هى الحال فى الأحلام ، فان أهم شىء فى الــكابوس ليس الصــور التى يراها النائم ، وانما الأثر الذى يتركه الكابوس • وهــذا ما يؤكده الكاتب الانجليزى ( كوليريدج COLERIDGE ) حيث يقول : « المهم ما تتركه الأحلام من انطباع » •

أما الشاعر الأسبانى ( كنغورا CONGORA ) فهو يصرح فى احدى قصائده : بأن الأحلام ، ومنها الكوابيس ، ما هى الا حــكايات خرافيــة ، ابداعات أدبية من نسج الخيــال •

أما توماس براون ، فيقول : ان الأحلام تؤكد فكرة ســمو الروح ، لأن الروح مستقلة عن الجسد وهى تميل الى اللعب والى الحلم •

ويقول الشاعر الانجليزى ( أديسون ADDISON ) : « حينما تكون الروح متحررة من عبء الجسد ، فانها تطلق لخيالهــا العنــان ، وتتصــرف فى حرية وانطلاق أكثر مما تكون فى حالة اليقظة » • ويضيف أديســون بــأن أصعب العمليات التى تقوم بها الروح هى عملية الابداع •

ونحن فى أحلامنا نبدع ونختــرع بطريقة سريعــة بحيث نخلط بــين أفكارنا وبين ما نقوم باختراعه أو ابداعه •

ولا نبالغ اذا قلنا أن الأحــلام هى أقــدم النشــاطات الجماليــة على الاطــلاق • بل انهــا أيضا من النوع الدرامى ، وفى ذلك يقول ( أديسون ) « اننا فى الحلم نــكون فى ذات الوقت : المسرح والمتفــرجين والممثــلين ، والموضـــوع وكذلك ما نسمع من حوارات أو مناجيات » •

وفى الآداب العالمية كوابيس شهيرة نختــار منها اثنين من النـــوع : الحقيقى ، أو النبوئى :

*** فى الكوميـــديا الالهيـــة :**

فيما يصف دانتى رحلته الى المطهر ، يتحــدث عن وصـــوله الى أولى حلقات الجحيم بصحبة الشاعر الكبير ( فيرجيل ) الذى يقوم بدور المرشــد للشــاعر الايطالى • فما ان يصــل دانتى الى هــذه الحلقــة الأولى من الجحيم حتى يفــاجأ بأن فيرجيــل قد شحب وجهــه خوفا وفزعا ، فقــال دانتى فى نفسه : اذا كان ( فيرجيل ) يشحب عند دخــوله الجحيــم وهــو يعتبر من ســكانه الدائمــين ، فمــاذا ســيحدث لى أنــا ؟ وفى طريقهمــا وصــل الشاعران الى قصر منيف تحوطه أسوار ســبعة تمثل الفنون السبعة أو الفضائل السبعة • ثم شاهدا جدولا يختفى وكــذلك أرضــا خضــراء لا تلبث أن تختفى أيضا • وحينما يقتــربان لا يريان العشب ، وهــو شىء حى ، وانما يريان بدلا منــه ســطحا خزفيــا وهو شىء ميت • بعــد ذلك يشــاهد الشاعران أربعة أشباح هم شعراء العصور القديمة العظام : هومير وأوفيــد ، ولوكان ، وهوراس • فطلب فيرجيــل من دانتى أن يحيى هومير • ثم يتقــدم هومير وسيفه بيده ويستقبل دانتى باعتباره سادس الشــعراء • دانتى الذى لم يكتب بعد الكوميديا الالهية ، فهو كان ما يزال يكتب فيها فى ذلك الوقت •

المهم بعد ذلك أن الشاعرين ( دانتى وفيرجيل ) يستأنفان جولتهما فى الجحيم فيشاهدان عظماء العالم القديم أفلاطون وأرسطو كما يشاهدان بعض عظماء المسلمين أيضا مثل صلاح الدين وابن رشد ، والغريب أن دانتى يذكر هؤلاء دون أن نسمع منهم كلمة واحدة ، هذا الجو الكابوسى كان دانتى أول من صوره فى الأدب .

* أما الكابوس الأدبى الثانى فنجده فى الجزء الثانى من كتاب ( التمهيد ) للكاتب الأمريكى ( وورد سو ورث ) الذى يعبر عن قلقه لما يتهدد الفنون والآداب والعلوم من خطر أى كارثة عالمية يمكن أن تقضى عليها قضاء مبرما ، فأى رعب وأى فزع يمكن أن يشعر به الانسان حينما يتصور أن حصاد الانسانية جمعاء ، وعلى مر عصور البشرية ، من علوم ، وفنون ، بل والبشرية نفسها ، تحت رحمة أى كارثة تصيب العالم .

ويروى الكاتب الكابوس الذى رآه فى الحلم تحت تأثير فكرة هذا الدمار العالمى الشامل ، ومما يسترعى الانتباه فى هذا الكابوس أنه من النوع التام أو الكامل ، اذ يجمع بين العنصرين اللذين يحققان للكابوس تمامه واكتماله ، فهو يتضمن الوقائع التى تسبب التوعكات أو الانحرافات الجسدية المادية من ناحية ، والرعب أو الفزع الخارق للطبيعة من ناحية أخرى .

يرى ( وورد سو ورث ) أنه رأى فى المنام أنه جالس داخل مغارة أمام البحر ، عند منتصف النهار ، يقرأ فى كتاب ( دون كيشوت ) مغامرات الفارس الشارد : « ثم تركت الكتاب جانبا وجعلت أتأمل فى موضوع العلوم والفنون هذا ، فغلبنى النعاس ، وبدأت فى الحلم .

رأى الكاتب نفسه وسط الصحراء ، لا ماء ، ولا بحر ، وراح يسأل نفسه عن طريقة للخلاص ، حينما لمح بالقرب منه انسانا . شىء غريب . انه عربى ، بدوى ، يمتطى جملا ويحمل فى يده اليمنى حربة أو رمحا ، وتحت ابطه الأيسر حجر ، وفى يده اليسرى ودعة أو صدفة ، ويخبر ،

العربى أنه مكلف بمهمة انقاذ الفنون والعلوم • ثم يقــرب الودعة من أذن الكاتب ، وهى ودعة رائعة الجمال • ويقول الكاتب انه سمع هــذه النبــوءة بلغة لا يعرفها ، لكنه فهمهــا : أنشـــودة ســاحرة تعــلن أن الأرض فى طريقهــا الى الدمار بتأثير طوفان ســببه غضب الله • ويؤكد له العــربى أن هذا صــحيح ، أن الطوفان يقتــرب ، ولكنه ، أى العربى ، مــكلف بمهمــة عليه أن ينجــزها : اذ يجب عليه أن ينقذ العلوم والفنون ، ويعرض العربى على الكاتب الحجر الذى يحتفظ به تحت ابطه الأيسر ، والغــريب ، وهــذا فى الحلم ، أن هذا الحجر هو علم الهندسة ، هندسة اقليديوس دون أن يكف عن كونه حجــرا ، ثم يقــدم له الصدفة ، والصدفة كتاب • الكتاب الــذى علم منه بهذه الأخبار المفزعة الرهيبة • والصدفة أيضا هى جميــع أشــعار العالم • ويقول له العربى : « ينبغى أن أنقــذ هذين الشــيئين : الحجــر والصدفة ، هذين الكتابين » ، وينظر الكاتب الى العربى فاذا وجهــه يعبــر عن الفــزع والرعب ، فيلتفت الكاتب خلفــه ناحيــة الجهــة التى ينظــر اليهــا العــربى ، فاذا بفيض من الضوء يغرق نصف الصحراء ، انه ضــوء الطوفان الذى يوشك أن يدمر العالم • ويختفى العربى ، ويلاحظ الكاتب أن العربى هو دون كيشوت ، والجمل هو روسينانت •

ويفيق ( وورد سوورت ) من نومه فزعا من هذا الكابوس ويطلق صيحة رعب اذ أن المياه قد بلغته •

وأعتقد أن هذا الكابوس من أجمل ما ذكر فى الآداب العالمية •

بعد هذه الجولة مع الأحلام والكوابيس ، نخرج بخلاصتين :

**الأولى :**

هى أن الحــلم ابــداع فنى ، ولعــله أقــدم الابــداعات الفنيــة على الاطلاق ، كما أن الحلم يتخذ الشكل الدرامى ، فنحن فيــه ، كمــا أكــد ( أديسون ) نكون المسرح والممثلين والمتفرجين والموضوع •

**أما الخلاصة الثانية :**

التى نخرج بها من دراسة الأحـلام ، فهى عـلاقة الكابوس بالرعب وارتباطه بالفزع الخارق للطبيعة ، فمهما كانت المصائب التى نتعرض لها فى حيـاتنا الواقعية ، ومهما كان الحـزن الذى يصـيبنا من جراء هذه المصائب ، فان ذلك يختلف عما يحدث لنـا ونشـعر به فى الكابوس • فللكابوس فزعة النوعى او الذى لا يشبه ما عداه من الفزع ، وهذا الفزع يمكن التعبير عنـه من خلال أسطورة أو حكاية خرافية كحكاية العربى والكاتب ( وورد سورث ) أو حكايات الكاتب الانجليزى ( ادغار آلان بو ) •

ومن الغريب أن الدراسات النفسية التى تناولت موضوع الكوابيس لم تتعرض لهذا الفزع النوعى الذى يميز هذه الظاهرة •

ومن الغريب أيضـا أن تجمع اللغات المختلفة ، التى تعرضـنا لهـا فى بداية حديثنا ، على اعطاء الكابوس معنى خارقا للطبيعة • فهـل هى ظاهرة خارقة وحسب ؟ أم هى ، كما أسلفنا ، شذرات من الجحيم ؟ أم أن الكابوس هو الجحيم عينه ؟ قد يكون الكابوس هذا أو ذلك ، وقد يكون هـذا وذلك وشـيئا آخر لم يصل اليه عالمنـا البشرى القاصر •

# الفهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب القومية

٨٨/١٥٩٢

الترقيم الدولى ٢ — ٠٢٩٠ — ١٠ — ٩٧٧

شركة دار الاشـــعاع للطباعة
١٤ شارع عبد الحميد — جنينة قاميش
السيدة زينب — القاهرة
ت : ٣٦٣٠٤٦٩